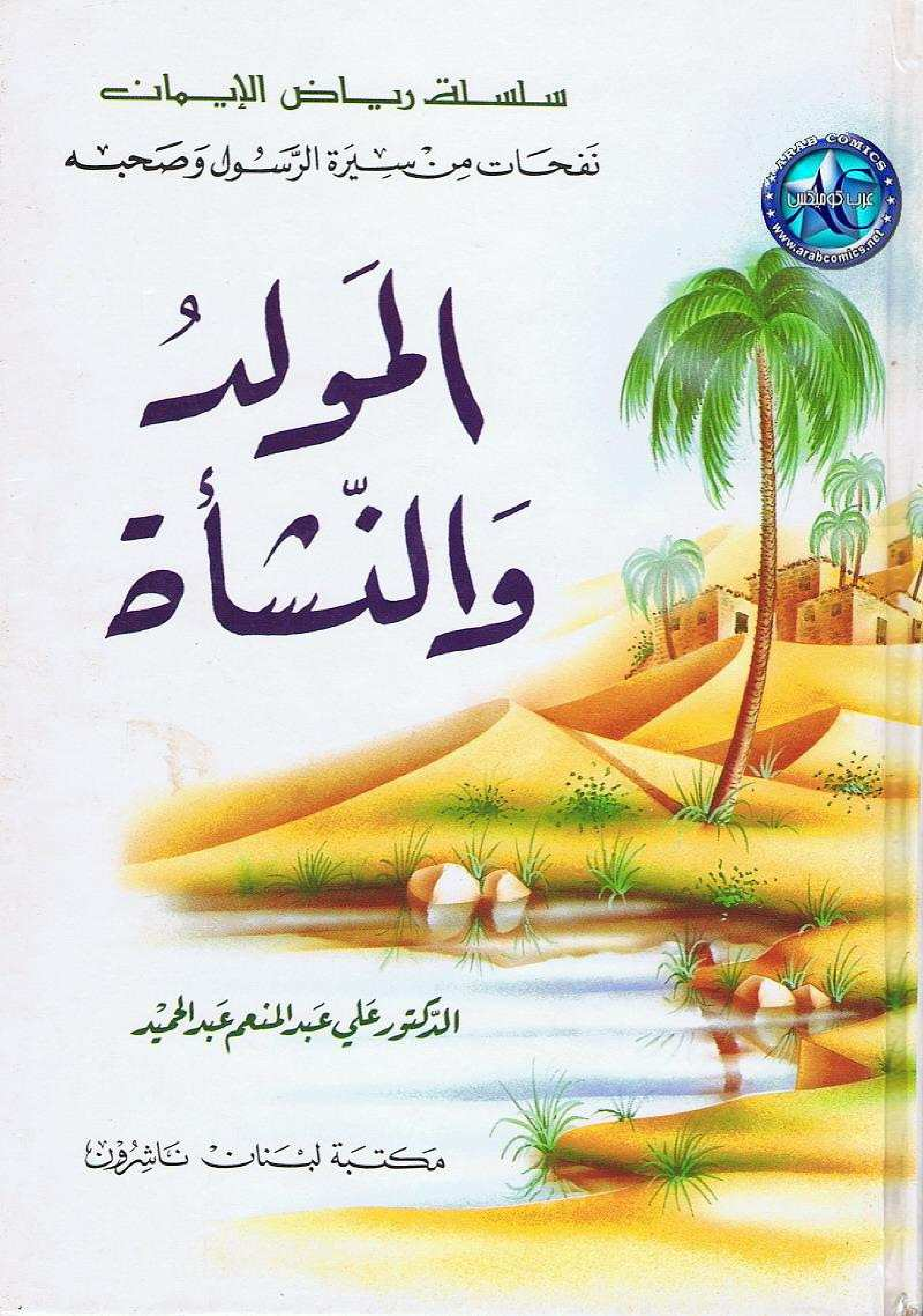
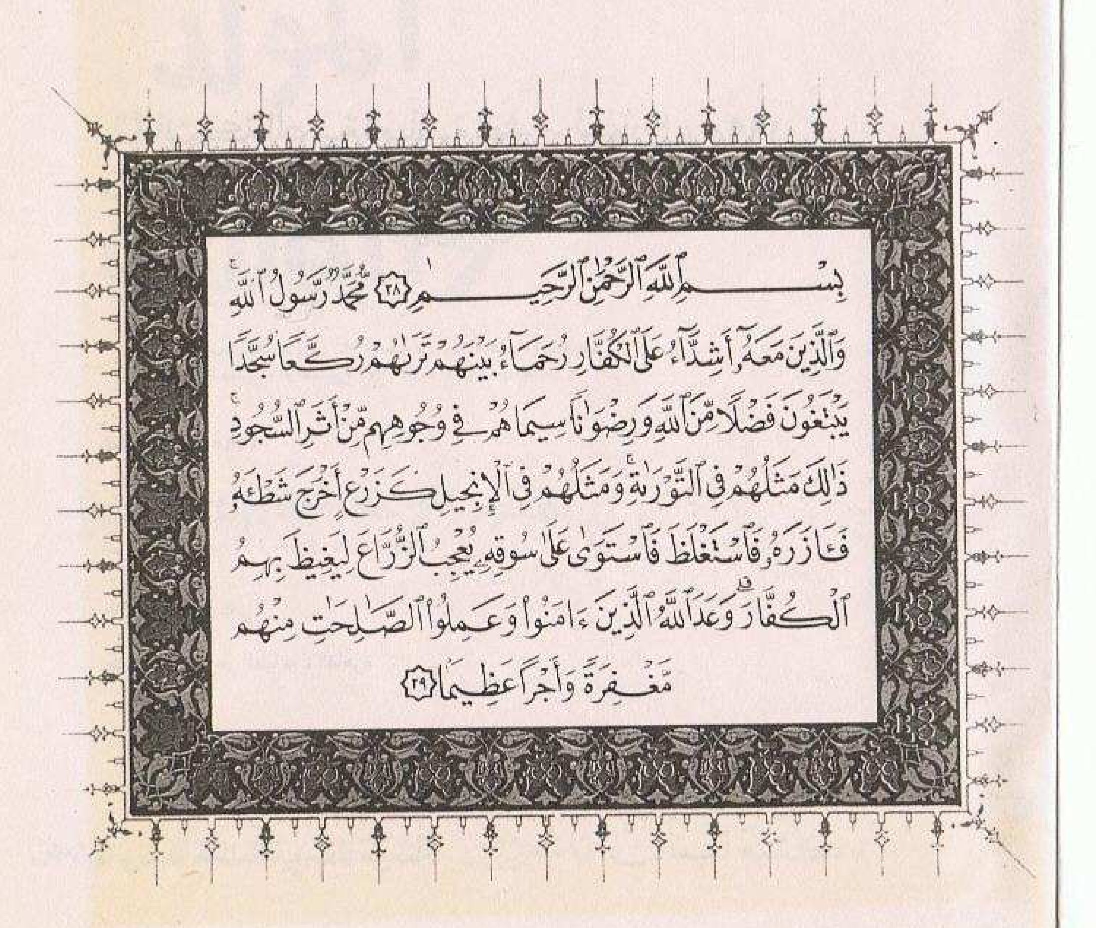

سلسلة رياض الإيمان
نفحات من سيرة الرسول وصحبه
المولد والنشأة
الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد
مكتبة لبنان ناشرون

المولد والنَّشأة



بسم الله الرحمن الرحيم ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ
ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ
فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ
الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

إشراف الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

١٠ (أ)، شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

زقاق البلاط - ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٥

رقم الإيداع ١٩٩٥/٧٠٩٣

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧-١٦-٠١٦٩-٥

غلاف : أحمد سامي

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة



نفحات من سيرة الرسول وصحبه

المولد والنَّشأة

الدكتور علي عبد المنعم عبد الحميد

مكتبة لبنان ناشرون الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

المَوْلِد

في بَيْتِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَرِيبًا مِنَ الصَّفا ، كانَتْ تَرْقُدُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ في فِراشِها ، تَتَرَقَّبُ أَنْ تَضَعَ مَوْلُودَها . وَكانَتْ إلى جِوارِها « بَرَكَةُ » الحَبَشِيَّةُ ، جارِيَةُ زَوْجِها عَبْدِ اللهِ ، الَّذي خَرَجَ في تِجارَةِ أَبيهِ مَعَ قافِلَةِ قُرَيْش ، وَفي أَثْناءِ عَوْدَتِهِ عَرَّجَ عَلى « يَثْرِبَ » لِيَزورَ أَخْوالَهُ ، وَيَشْتَرِيَ مِنْها تَمْرًا ، يُحْضِرُهُ إلى مَكَّةَ كَما أَوْصاهُ أَبوهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ ، وَلَكِنَّهُ مَرِضَ هُناكَ ، وَفارَقَ الحَياةَ .

نَظَرَتْ « بَرَكَةُ » مِنَ النّافِذَةِ فَوَجَدَتِ الْقَمَرَ يوشِكُ أَنْ يَكونَ بَدْرًا ، وَ وَجَدَتْ نورَهُ زاهِيًا يَغْمُرُ كُلَّ ما تَقَعُ عَلَيْهِ عَيْنُها ، وَخُيِّلَ إِلَيْها أَنَّ الْقَمَرَ يَهُمُّ بِمُلامَسَةِ الأَرْضِ ، وَأَنَّ مَكَّةَ كُلَّها تَسْبَحُ في أَمْواجٍ مِنَ النّورِ وَالضِّياءِ ، وَأَبْصَرَتْ نورَ القَمَرِ فَوْقَ الكَعْبَةِ فَحَسِبَتْها قَدِ اكْتَسَتْ ثَوْبًا لامِعًا مِنَ الفِضَّةِ .

وَنَظَرَتْ « بَرَكَةُ » إلى سَيِّدَتِها الرّاقِدَةِ في فِراشِها – فَوَجَدَتْها هادِئَةً مُطْمَئِنَّةً ، لا تَكادُ تُعاني شَيْئًا مِنْ آلامِ الوَضْعِ ، وَلَكِنَّها خَشِيَتْ أَنْ تَسْتَقْبِلَ المَوْلودَ وَحيدَةً ، فَأَسْرَعَتْ تَسْتَدْعي « الشِّفاء » أُمَّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ، وَهِيَ امْرَأَةٌ ذاتُ خِبْرَةٍ وَدِرايَةٍ .. وَقَبْلَ أَنْ يُشْرِقَ الفَجْرُ وَضَعَتْ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ مَوْلودَها !

لَمْ يَصْرُخِ المَوْلودُ ، وَلَمْ يَرْفَعْ صَوْتَهُ بِبُكاءٍ ، وَإِنَّما نَزَلَ شاخِصًا بِبَصَرِهِ إلى السَّماءِ !

لَفَّتْهُ « بَرَكَةُ » في ثَوْبٍ نَظيفٍ ، وَ وَضَعَتْهُ إلى جِوارِ أُمِّهِ ، وَقَدْ تَفَجَّرَ قَلْبُها حُبًّا لَهُ ، وَحَنانًا عَلَيْهِ ؛ فَهِيَ لَمْ تَرَ مِثْلَهُ مِنْ قَبْلُ .. ثُمَّ انْطَلَقَتْ – حينَ أَسْفَرَ الصُّبْحُ – تَزُفُّ البُشْرى إلى جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ .

لَمْ تَجِدْ عَبْدَ المُطَّلِبِ في دارِهِ ، وَإِنَّما خَرَجَتْ إِلَيْها « ثُوَيْبَةُ » جارِيَةُ « أَبي لَهَبٍ » وَكانَتْ تُرْضِعُ حَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، فَأَخْبَرَتْها بِالخَبَرِ ، وَأَسْرَعَتِ الجارِيَتانِ : أَمّا

« ثُوَيْبَةُ » فَأخَذَتْ تَعْدو إلى بَيْتِ سَيِّدِها « أبي لَهَب » ؛ فَقَدْ كانَ يَنْتَظِرُ المَوْلودَ بِصَبْرٍ نافِدٍ ، فَهُوَ يُحِبُّ « عَبْدَ الله » حُبًّا شَديداً ، وَحَزِنَ لِفَقْدِهِ حُزْناً كَبيراً ، وَدَعا اللهَ أنْ يُعَوِّضَهُ بِمَوْلودٍ ، يَكونُ خَيْرَ خَلَفٍ لَهُ ، وَلَمّا أخْبَرَتْ سَيِّدَها بِالمَوْلودِ – قالَ لَها أبو لَهَبٍ : « اِذْهَبي فَأنْتِ حُرَّةٌ . »

وَكانَتْ سَعادَةُ « ثُوَيْبَةَ » غامِرَةً ، فَقَدْ خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَهِيَ جارِيَةٌ ، وَعادَتْ إلَيْها لِتُكْمِلَ رِضاعَةَ « حَمْزَةَ » وَهِيَ حُرَّةٌ كَريمَةٌ .. إنَّ هَذا المَوْلودَ الَّذي كانَ سَبَباً في حُرِّيَّتِها سَيَكونُ لَهُ شَأنٌ كَبيرٌ !

وَأمّا « بَرَكَةُ » فانْطَلَقَتْ إلى الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ – أوَّلِ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ في الأرْضِ ، في بُقْعَةٍ تَتَوَسَّطُ الأرْضَ كُلَّها – وَهُناكَ وَجَدَتْ عَبْدَ المُطَّلِبِ في دارِ النَّدْوَةِ ؛ فَألْقَتْ إلَيْهِ النَّبأ .

كانَتْ فَرْحَةُ عَبْدِ المُطَّلِبِ بِحَفيدِهِ غامِرَةً ، فَهُوَ عِوَضٌ عَنْ أبيهِ عَبْدِ اللهِ ، عاشِرِ أوْلادِهِ ، الَّذي لَمْ يَهْنَأْ بِزَواجِهِ غَيْرَ

أيّامٍ مَعْدودَةٍ ، ثُمَّ كانَ سَفَرُهُ في القافِلَةِ وَمَوْتُهُ . وَشَدَّ ما كانَ حُزْنُ أبيهِ عَلَيْهِ ، فَما إنِ افْتَداهُ مِنَ الذَّبْحِ بِمائَةٍ مِنَ الإبِلِ حَتّى اخْتَطَفَهُ المَوْتُ في يَثْرِبَ .. وَكَأنَّما قَبِلَتِ الآلِهَةُ الفِداءَ ، لِيَتَزَوَّجَ آمِنَةَ بِنْتَ وَهْبٍ ، وَيَمْكُثَ مَعَها هَذِهِ الأيّامَ القَليلَةَ ، ثُمَّ يَمْضِيَ إلى بارِئِهِ .

أسْرَعَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَحُثُّ الخُطا إلى بَيْتِ ابْنِهِ عَبْدِ اللهِ ، وَلَوْلا ضَعْفُ الشَّيْخوخَةِ لَجَرى جَرْياً ، وَدَخَلَ الدّارَ فَوَجَدَ نِساءَ بَني هاشِمٍ وَنِساءَ بَني زُهْرَةَ قَدْ أقْبَلْنَ ، وَأبْصَرَ الفَرْحَةَ عَلى وُجوهِهِنَّ ، وَأخَذْنَ يُقَدِّمْنَ لَهُ التَّهْنِئَةَ بالمَوْلودِ ، وَيَذْكُرْنَ لَهُ أنَّ وِلادَتَهُ كانَتْ سَهْلَةً يَسيرَةً ، وَأنَّ آمِنَةَ لَمْ تَشْعُرْ بِألَمٍ ، وَلَمْ تَجِدْ صُعوبَةً وَلا مَشَقَّةً .

قالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ : « أخْرِجوا إلَيَّ ابْني . »

فَأخْرَجَتْهُ « بَرَكَةُ » إلَيْهِ ، وَحَمَلَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَإذا هُوَ يَرى الجَمالَ في أزْهى صُوَرِهِ . يَرى وَليداً أبْيَضَ اللَّوْنِ ، مُشْرَباً بِحُمْرَةٍ ، عَيْناهُ سَوْداوانِ واسِعَتانِ ، يَنْظُرُ بِهِما إلى

السَّماءِ ، كأنَّهُ يَتطَلَّعُ إلى ما وراءَها ، وَشَفتاهُ تبْتسِمانِ في عُذوبَةٍ تَخلِبُ الألْبابَ ، وَتأسِرُ العُقولَ .

ضمَّهُ عَبْدُ المُطَّلبِ إلى صَدْرِهِ ، وَقبَّلَهُ بيْنَ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِهِ إلى الكَعْبَةِ المُشرَّفَةِ لِيطوفَ ، كَما هُوَ عِنْدَ قُرَيْشٍ مَعْروفٌ مألوفٌ .

وَأعيدَ المَوْلودُ إلى أمِّهِ ، نَظرَتْ إليْهِ في حُبٍّ ، لَوْ قُسِّمَ عَلى أهْلِ الأرْضِ جَميعًا لَوَسِعَهُمْ . ضَمَّتْهُ إلى صَدْرِها لِيُطْفِئَ حَنينَها إلى أبيهِ الرّاحِلِ ، وَيُخَفِّفَ مِنْ حُزْنِها عَلَيْهِ . حاوَلَتْ أنْ تُرْضِعَهُ ، وَلَكِنَّهُ يَأبى الرِّضاعَةَ ، وَيَشْخَصُ بِبَصَرِهِ نَحْوَ السَّماءِ .

ظَلَّ كَذَلِكَ يَوْمَيْنِ كامِلَيْنِ ، لَمْ يَلْتَقِمْ ثَدْيًا ، وَلَمْ يَدْخُلْ جَوْفَهُ شَيْءٌ ، وَإنَّما هُوَ شاخِصٌ بِبَصَرِهِ نَحْوَ السَّماءِ ، كَأنَّهُ يَتَزَوَّدُ بِزادِ الرّوحِ قَبْلَ أنْ يَبْحَثَ عَنْ زادِ الجَسَدِ . وَشاعَ في مَكَّةَ أنَّ ابْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَليلٌ !

وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ جاءَتْ « ثُوَيْبَةُ » الَّتي كانَ سَبَبَ حُرِّيَّتِها ،

فَألْقَمَتْهُ ثَدْيَها ، فَأقْبَلَ عَلَيْهِ ، وَ رَضَعَ رِضاعَةً كامِلَةً . وَذاعَ النَّبأُ أنَّ ابْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ قَدْ بَرِئَ مِنْ عِلَّتِهِ ، وَأصْبَحَتْ حَياتُهُ عادِيَّةً مَألوفَةً ؛ فَقَدْ أرْضَعَتْهُ « ثُوَيْبَةُ » الَّتي كانَتْ تُرْضِعُ عَمَّهُ « حَمْزَةَ » ؛ فَهُوَ وَحَمْزَةُ أخَوانِ مِنَ الرِّضاعَةِ .

كانَ ميلادُهُ ﷺ في يَوْمِ الاثْنَيْنِ ، الثّاني عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبيعٍ الأوَّلِ ، بَعْدَ أنْ مَضى عَلى حادِثَةِ الفيلِ خَمْسونَ يَوْماً !

عامُ الفيلِ

كانَ في اليمنِ ملكٌ حبشيٌ جبّارٌ عنيدٌ ، طاغيةٌ عتيدٌ، يُسمّى « أبْرهَة » ؛ رأى القبائلَ العربيَّةَ في اليمنِ وغيْرِها مِنَ الجزيرةِ العربيَّةِ تُعظِّمُ الكعْبَةَ المُشرَّفَةَ وتُقدِّسُها ، وتَذْهَبُ في كُلِّ عامٍ إلى مكَّةَ لِلْحَجِّ .

وأرادَ أنْ يصرِفَ القبائلَ العربيَّةَ عنِ الحجِّ إلى الكعْبَةِ ، والذّهابِ إلى مكّةَ ؛ فَبنى في اليمنِ معْبداً عظيماً ، وأمرَ القبائلَ العربيَّةَ في اليمنِ بِالحجِّ إليْهِ ، وعَدمِ الذّهابِ إلى الكعْبَةِ في مكّةَ .

ولكنَّ العربَ رفضوا الحجَّ إلى معْبدِهِ ، وصمّموا على الحجِّ إلى الكعبةِ المُشرَّفةِ في مكّةَ ، وذهَبَ رجُلٌ عربيٌّ في اللّيْلِ إلى المعْبدِ ، ولطّخَهُ بالقاذوراتِ .

غضِبَ أبْرهَةُ غضَباً شديداً ، وأمرَ جنودَهُ بالاستِعْدادِ

لِلذّهابِ إلى مكّةَ ، لِكَيْ يهْدِموا الكعْبَةَ ، فَلا يجِدَ العربُ مكاناً يحُجّونَ إليْهِ غيْرَ هذا المعْبدِ الّذي بناهُ في اليمنِ .

كانَ جيْشُ أبْرهَةَ قَوِيّاً عظيماً ، وكانَ يسْتخدِمُ الأفيالَ في الحرْبِ ، وكانَ هُناكَ فيلٌ كبيرٌ ضخْمٌ يتقدَّمُ الجيْشَ الكبيرَ .

سارَ أبْرهَةُ وجيْشُهُ وأفْيالُهُ إلى مكّةَ ، وفي الطّريقِ كانَ يُحارِبُ كُلَّ القبائِلِ العربيَّةِ الّتي تقِفُ في طريقِهِ ، ولكِنّهُ كانَ يغْتاظُ مِنَ الصّحْراءِ الواسِعةِ ، ولا يجِدُ أحداً يدُلُّهُ على الطّريقِ إلى مكّةَ .

وأخيراً وجدَ رجُلاً مِنْ أهْلِ الطّائِفِ ، اسْمُهُ «أبو رِغال»، مشى معَهُ لِيدُلّهُ على الطّريقِ إلى مكّةَ .

ولمّا أصْبحَ أبْرهَةُ قريباً مِنْ مكّةَ ، وعرفتْ قُريْشٌ أنَّ أبْرهَةَ ومعَهُ الجيْشُ الضّخْمُ الكبيرُ، والفيلُ القويُّ المُخيفُ ، جاءَ يقْصِدُ هدْمَ الكعْبَةِ ، وأدْركتْ قُريْشٌ – كذلكَ – أنّها لا تسْتطيعُ أنْ تقِفَ في طريقِهِ ، ولا أنْ تُحارِبَ هذا

الجَيْشَ الضَّخْمَ الكَبيرَ اجْتَمَعَ شُيوخُها ؛ لِيَتدبَّروا أمْرَهُمْ وَيَتَشاوَروا .

قالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ : « اِسْمَعوا أيُّها القَوْمُ ، نَحْنُ لا نَسْتَطيعُ مُقاوَمَةَ هذا الجَيْشِ ، وَرأيي : أنْ نَأخُذَ حاجاتِنا الثَّمينَةَ ، وَنَتَفَرَّقَ فَوْقَ جِبالِ مَكَّةَ ، وَنَتْرُكَ مَكَّةَ خالِيَةً ، فَنَنْجُوَ بِأنْفُسِنا وَأوْلادِنا وَمَتاعِنا. أمّا البَيْتُ فَلَهُ رَبٌّ يَحْميهِ . »

فَعَلَتْ قُرَيْش ما أشارَ بِهِ عَبْدُ المُطَّلِبِ ، وَتَرَكَتْ مَكَّةَ خالِيَةً ، لَيْسَ في بُيوتِها رَجُلٌ وَلا امْرأةٌ ، وَأصْبَحَ الطَّريقُ إلى الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ مُمَهَّداً أمامَ أبْرَهَةَ الجَبّارِ العَنيدِ ، وَجَيْشِهِ الضَّخْمِ الكَبيرِ ، وَفيلِهِ القَوِيِّ العَتيدِ .

فَرِحَ أبْرَهَةُ الجَبّارُ العَنيدُ فَرَحاً شَديداً عِنْدَما عَرَفَ ذلِكَ ، وَظَنَّ أنَّ مُهِمَّتَهُ في هَدْمِ الكَعْبَةِ أصْبَحَتْ سَهْلَةً قَريبَةَ المَنالِ ، وَأمَرَ الجَيْشَ الضَّخْمَ الكَبيرَ بِالتَّقَدُّمِ إلى مَكَّةَ ، لِيَهْدِمَ الكَعْبَةَ .

وَلكِنَّ الفيلَ الضَّخْمَ الكَبيرَ الَّذي يَتَقَدَّمُ الجَيْشَ يَرْفُضُ

السَّيْرَ إلى الأمامِ ، يَرْفُضُ السَّيْرَ في الطَّريقِ إلى مَكَّةَ !

ضَرَبوهُ ضَرْباً شَديداً ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّكْ .

وَجَّهوهُ إلى بِلادِ اليَمَنِ فَمَشى مُسْرِعاً .

وَجَّهوهُ مَرَّةً أخْرى إلى مَكَّةَ فَوَقَفَ ساكِناً .

سَيْطَرَتِ الحيرَةُ عَلى نَفْسِ أبْرَهَةَ الجَبّارِ العَنيدِ ، وَعَلى جَيْشِهِ الضَّخْمِ الكَبيرِ ، وَاسْتَوْلى الخَوْفُ عَلى قُلوبِهِمْ .

لِماذا لا يَتَحَرَّكُ الفيلُ إلى مَكَّةَ ؟ وَلِماذا يَتَحَرَّكُ إلى اليَمَنِ ؟

وَبَيْنَما هُمْ يَتَساءَلونَ ، وَيَتَحَيَّرونَ – أبْصَروا سَحابَةً كَبيرَةً ضَخْمَةً قَدْ غَطَّتِ السَّماءَ ، وَحَجَبَتِ الشَّمْسَ ، وَأخَذَ الظَّلامُ يَنْتَشِرُ عَلى الأرْضِ .

خافَ أبْرَهَةُ الجَبّارُ العَنيدُ ، وَجَيْشُهُ الضَّخْمُ الكَبيرُ خَوْفاً شَديداً ، وَأخَذَتْ أجْسامُهُمْ تَرْتَعِدُ مِنْ شِدَّةِ الفَزَعِ ، وَمَفاصِلُهُمْ يَخْبِطُ بَعْضُها في بَعْضٍ ، وَلا تَكادُ تَقْوى عَلى

حَمْلِهِمْ .

لَمْ يَطُلِ المَوْقِفُ ، وَنَظَرَ أَبْرَهَةُ وَجُنودُهُ إلى السَّماءِ ، فَإذا السَّحابَةُ الكَبيرَةُ الضَّخْمَةُ الَّتي غَطَّتِ السَّماءَ ، وَحَجَبَتِ الشَّمْسَ – هَذِهِ السَّحابَةُ هِيَ جَماعاتٌ مِنَ الطُّيورِ جاءَتْ فَوْقَ الجَيْشِ الضَّخْمِ الكَبيرِ ، وَفي أَرْجُلِها حِجارَةٌ صَغيرَةٌ دَقيقَةٌ ، وَراحَتِ الطُّيورُ تَقْذِفُ الجُنودَ بِالحِجارَةِ الصَّغيرَةِ الدَّقيقَةِ الَّتي في أَرْجُلِها ، وَكُلُّ حَجَرٍ كانَ يَقَعُ فَوْقَ جُنْدِيٍّ فَيَقْتُلُهُ .

اِخْتَلَطَ أَمْرُ الجَيْشِ ، وَراحَ كُلُّ واحِدٍ يُحاوِلُ الفِرارَ ، فَنَجا بَعْضُ الجُنودِ مِنَ القَتْلِ ، وَ رَجَعَ أَبْرَهَةُ الجَبّارُ العَنيدُ مَريضًا مَهْزومًا ، يَتَساقَطُ لَحْمُهُ عَنْ عَظْمِهِ وَهُوَ في الطَّريقِ إلى اليَمَنِ .

عادَ أَبْرَهَةُ مَهْزومًا مَخْذولاً ، لَمْ يَلْقَ عَدُوًّا ، وَلَمْ يُقاتِلْ جُنودًا ، بَلْ هَزَمَتْهُ طَيْرٌ أَبابيلُ ، قَذَفَتْهُ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجّيلٍ .

عادَ دونَ أَنْ يَبْلُغَ مَأْرَبَهُ ، وَيُحَقِّقَ هَدَفَهُ ، الَّذي ظَنَّ أَنَّ

الطَّريقَ إِلَيْهِ مَيْسورٌ ، وَأَنَّها نُزْهَةٌ صَحْراوِيَّةٌ ، يُرَفِّهُ بِها عَنْ نَفْسِهِ وَجُنودِهِ ، ثُمَّ يَخْتِمُها بِهَدْمِ البَيْتِ العَتيقِ ، وَكَسْرِ أَنَفَةِ هَؤُلاءِ العَرَبِ الغِلاظِ الأَجْلافِ ؛ وَلِذَلِكَ اصْطَحَبَ هُوَ وَجُنودُهُ نِساءَهُمْ ، وَبَعْضَ المُغَنِّياتِ وَالعازِفاتِ .

وَلَكِنَّ اللهَ حَمَى بَيْتَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ وَلا مِنْ غَيْرِهِمْ فَضْلٌ في حِمايَتِهِ ، وَالدِّفاعِ عَنْهُ .

وَكانَ أَبْرَهَةُ قَدْ عَزَمَ عَلى تَأْديبِ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ حينَ يَعودُ مِنْ مُهِمَّتِهِ ، تِلْكَ القَبائِلُ الَّتي لَمْ تَمُدَّ لَهُ يَدَ العَوْنِ في مَسيرَتِهِ ، بَلْ لَقِيَ مِنْ بَعْضِها مُناوَشَةً وَمُقاوَمَةً ، وَنَهْبًا لِبَعْضِ المالِ وَاغْتِصابًا . وَلَكِنَّهُ عادَ خائِرَ القُوى ، ضَعيفَ الهِمَّةِ ، فاتِرَ العَزيمَةِ ، عَليلَ الجِسْمِ وَالنَّفْسِ ، وَكَذَلِكَ مَنْ مَعَهُ .

وَاسْتَقْبَلَتْهُ القَبائِلُ العَرَبِيَّةُ في طَريقِ العَوْدَةِ – تَمُدُّ يَدَها فَتَغْتَرِفُ مِمّا كانَ مَعَهُ مِنْ مالٍ ، دونَ أَنْ يَصُدَّها أَحَدٌ ، أَوْ يَعْتَرِضَ سَبيلَها مُعْتَرِضٌ ، وَتَأْسِرُ مَنْ تَشاءُ مِمَّنْ بَقِيَ مِنْ

الجُنودِ وَالنِّساءِ فَلا تَجِدُ مُقاوَمَةً وَلا مُضايَقَةً ، بَلِ اسْتِسْلاماً وَإذْعاناً .

وَكانَ مِنْ بَيْنِ الأسيراتِ أميرةٌ حَبَشِيَّةٌ ، هِيَ ابْنَةُ أخْتِ أبْرَهَةَ ، تِلْكَ الَّتي زَوَّجَها سَيِّدُها مِنْ عَبْدِهِ « رَباح » فَكانَ لَهُ مِنْها « بِلال » مُؤَذِّنُ رَسولِ اللهِ ﷺ .

وَبَعْدَ هذِهِ الحادِثَةِ بِخَمْسينَ يَوْماً كانَ مَوْلِدُ « مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ » ﷺ .

المرْضِعَة

كانَ مِنْ عادَةِ شُيوخِ القَبائِلِ العَرَبِيَّةِ وَأشْرافِها ، الَّذينَ يَسْكُنونَ المُدُنَ ، مِثْلَ مَكَّةَ – كانَ مِنْ عادَتِهِمْ أنْ يَبْعَثوا بِأطْفالِهِمْ إلى البادِيَةِ ؛ لِكَيْ تَصِحَّ أجْسامُهُمْ ، وَتَصْفُو نُفوسُهُمْ ، وَتَنْشَطَ عُقولُهُمْ .

وَكانَتِ النِّساءُ المُرْضِعاتُ مِنْ أهْلِ البادِيَةِ يَأتينَ إلى مَكَّةَ لاصْطِحابِ الأطْفالِ .

وَفي المَوْسِمِ المُعْتادِ خَرَجَتِ النِّساءُ المُرْضِعاتُ مِنْ بَني سَعْدٍ قاصِداتٍ مَكَّةَ ، وَبَيْنَهُنَّ امْرَأةٌ اسْمُها « حَليمَةُ » وَكانَتْ أرْضُ بَني سَعْدٍ في تِلْكَ السَّنَةِ جَدْباءَ ، لَيْسَ فيها زَرْعٌ وَلا ماءٌ . وَكانَتْ كُلُّ واحِدَةٍ مِنَ المُرْضِعاتِ تُمَنّي نَفْسَها بِأنْ تَأخُذَ مِنْ مَكَّةَ طِفْلاً رَضيعاً غَنِيّاً ، يَسْتَطيعُ أهْلُهُ أنْ يُمِدّوها بِالمالِ ، وَيَمْنَحوها الهَدايا ، الَّتي تَمْسَحُ عَنْها ما

تُعانيهِ مِنْ ضُرٍّ ، وَتُخَفِّفُ ما تَعيشُهُ مِنْ جَدْبٍ .

وَصَلَتِ المُرْضِعاتُ مِنْ بَني سَعْدٍ مَكَّةَ ، وَأَخَذَتْ كُلُّ مُرْضِعَةٍ طِفْلاً غَنِيّاً ، لَكِنَّ حَليمَةَ وَصَلَتْ إلى مَكَّةَ مُتَأَخِّرَةً؛ فَقَدْ كانَ حِمارُها الَّذي تَرْكَبُهُ ضَعيفاً ، وَكانَتْ ناقَتُها – كَذَلِكَ – هَزيلَةً .

لَمْ تَجِدْ حَليمَةُ في مَكَّةَ غَيْرَ طِفْلٍ واحِدٍ يَتيمٍ ، عَرَضَهُ جَدُّهُ عَلى المُرْضِعاتِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَقْبَلْنَهُ .. إنَّ جَدَّهُ عَبْدَ المُطَّلِبِ الَّذي يَتَوَلى تَرْبِيَتَهُ زَعيمُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُها ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ غَنِيّاً .. وَماذا تَسْتَطيعُ أَنْ تَفْعَلَ الأُمُّ وَالجَدُّ وَقَدْ ماتَ الأَبُ قَبْلَ أَنْ يولَدَ الطِّفْلُ ؟

طَرَقَتْ حَليمَةُ بابَ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، فَهِيَ لا تَرْغَبُ في أَنْ تَعودَ مِنْ مَكَّةَ خالِيَةً ، وَقَدْ عادَتْ نِساءُ بَني سَعْدٍ بِأَطْفالٍ يُرْضِعْنَهُمْ .

سَأَلَها عَبْدُ المُطَّلِبِ : « ما اسْمُكِ ؟ »

أَجابَتْ : « حَليمَةُ . »

قالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ : « مِنْ أَيِّ القَبائِلِ أَنْتِ ؟ »

قالَتْ : « مِنْ بَني سَعْدٍ . »

قالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ : « حَسَناً ، حِلْمٌ وَسَعْدٌ . عِنْدي طِفْلٌ يَتيمٌ ، أَ تَأْخُذينَهُ ؟ لَعَلَّهُ يَكونُ لَكِ بَرَكَةً وَسَعْداً ! »

قالَتْ حَليمَةُ : « أَمْهِلْني حَتّى أُشاوِرَ زَوْجي . »

وَعادَتْ حَليمَةُ إلى زَوْجِها ، وَقالَتْ لَهُ : « لَمْ يَبْقَ في مَكَّةَ طِفْلٌ رَضيعٌ غَيْرُ طِفْلٍ واحِدٍ يَتيمٍ . وَقَدْ عَرَضَهُ جَدُّهُ عَلَيَّ فَماذا نَصْنَعُ ؟ »

قالَ زَوْجُها : « لَقَدْ وَصَلْنا مُتَأَخِّرينَ .. فَما رَأْيُكِ في أَنْ نَأْخُذَهُ ؟ »

قالَتْ حَليمَةُ : « وَما عَسى أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وَجَدُّهُ ؟ لَقَدْ كُنّا نَرْجو البِرَّ مِنْ أَبيهِ ! »

قالَ زَوْجُها : « لَقَدْ رَجَعَتِ النِّساءُ وَمَعَ كُلِّ واحِدَةٍ رَضيعٌ ! »

قالَتْ حليمَةُ : « إذاً سأعودُ إلى بيْتِهِ لآخُذَهُ . »

وَعادَتْ حليمَةُ إلى عَبْدِ المُطَّلِبِ ، فاصْطَحَبها إلى بيْتِ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ ، وَأَدْخَلَتْها آمِنَةُ إلى حَيْثُ يرْقُدُ الطِّفْلُ « مُحَمَّدٌ » .

نَظَرَتْ حليمَةُ إلَيْهِ ، وَشَرَحَ اللهُ صَدْرَها لَهُ .. أَحبَّتْهُ حُبًّا كَبيراً ، فَأَخَذَتْهُ فَرِحَةً مَسْرورَةً .

رَفَعَتْ حليمَةُ « مُحَمَّداً » بِيَدَيْها ، ضَمَّتْهُ إلى صَدْرِها ، وَكانَتْ نحيفَةً هَزيلَةً ، لَيْسَ في صَدْرِها لَبَنٌ يَكْفي ابْنَها الَّذي كانَتْ تَصْحَبُهُ مَعَها .

وَلكِنَّ حليمَةَ شَعَرَتْ بِاللَّبَنِ يَمْلأُ صَدْرَها ، وَضَعَتْ ثَدْيَها الأيْمَنَ في فَمِ الطِّفْلِ « مُحَمَّدٍ » فَرَضَعَ حَتّى ارْتَوى ، ثُمَّ وَضَعَتْ في فَمِهِ ثَدْيَها الأيْسَرَ فَامْتَنَعَ عَنِ الرِّضاعَةِ ؛ أَلْهَمَهُ اللهُ أنَّ حليمَةَ لَها ابْنٌ آخَرُ رَضيعٌ ، فَتَرَكَ لَهُ الثَّدْيَ الأيْسَرَ لِيَرْضَعَ وَيَشْبَعَ .

رَجَعَتْ حليمَةُ إلى زَوْجِها الَّذي كانَ يَنْتَظِرُها ، وَهِيَ

مَسْرورَةٌ تَكادُ تَقْفِزُ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ ، وَقالَتْ لِزَوْجِها :

« لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ قُرَيْشٍ طِفْلاً مُبارَكاً ! »

وَضَعَتْ حليمَةُ ثَدْيَها الأيْسَرَ في فَمِ طِفْلِها الثّاني فَرَضَعَ وَشَبِعَ ، وَكَفَّ عَنِ البُكاءِ . وَقامَ زَوْجُها إلى النّاقَةِ فَوَجَدَ في ضَرْعِها لَبَناً كَثيراً . حَلَبَ زَوْجُها النّاقَةَ ، وَشَرِبَ حَتّى ارْتَوى ، وَشَرِبَتْ حليمَةُ حَتّى ارْتَوَتْ ، وَقالَ لَها زَوْجُها : « حَقًّا ، يا حليمَةُ ، لَقَدْ أَخَذْنا اليَوْمَ طِفْلاً مُبارَكاً ! »

رَكِبَتْ حليمَةُ حِمارَها وَمَعَها « مُحَمَّدٌ » ﷺ ، وَرَكِبَ زَوْجُها النّاقَةَ وَمَعَهُ ابْنُهُ .. وَلاحَظَتْ حليمَةُ أنَّ الحِمارَ الهَزيلَ الضَّعيفَ أَصْبَحَ قَوِيًّا نَشيطاً .

وَلاحَظَ زَوْجُها أنَّ النّاقَةَ الضَّعيفَةَ أَصْبَحَتْ قَوِيَّةً نَشيطَةً .

وَأَدْرَكَتْ حليمَةُ وَزَوْجُها المُرْضِعاتِ اللاتي كُنَّ قَدْ سَبَقْنَها .

وَتَعَجَّبَتِ المُرْضِعاتُ !

لَقَدْ كانَ حِمارُ حَليمَةَ ضَعيفًا لا يَقْوى عَلى السَّيْرِ ، وَكانَتْ ناقَتُها هَزيلَةً لا تَكادُ تَنْهَضُ بِحِمْلٍ .. فَماذا حَدَثَ لَهُما ؟

قالَتْ واحِدَةٌ مِنْهُنَّ : « يا حَليمَةُ ، أَلَيْسَ هَذا حِمارَكِ الَّذي جِئْتِ عَلَيْهِ مِنْ دِيارِنا ؟ »

أجابَتْ حَليمَةُ : « بَلى ، إِنَّهُ هُوَ . »

قالَتِ المَرْأَةُ : « وَاللهِ ، إِنَّ لِرَضيعِكِ هَذا لَشَأْنًا ! »

عادَتِ المُرْضِعاتُ إلى دِيارِ بَني سَعْدٍ ، وَكانَتْ أَرْضُها في هَذا العامِ جَدْباءَ ، لَيْسَ فيها زَرْعٌ وَلا ماءٌ ، أَوْ كَما تَقولُ حَليمَةُ : « لَيْسَ في أَرْضِ اللهِ أَجْدَبَ مِنْها . »

وَكانَتْ غَنَمُ حَليمَةَ تُسَرَّحُ لِتَرْعى ، ثُمَّ تَعودُ وَقَدْ شَبِعَتْ وَامْتَلأَتْ ضُروعُها لَبَنًا ، فَتَحْلِبُ حَليمَةُ ، وَتَشْرَبُ هِيَ وَأَهْلُ بَيْتِها ، وَلَيْسَ هُناكَ في دِيارِ بَني سَعْدٍ مَنْ يَحْلِبُ لَبَنًا ! فَكانَ النّاسُ يَقولونَ لِرُعْيانِهِمْ : « وَيْحَكُمْ ! اِرْعَوْا أَغْنامَنا حَيْثُ يَذْهَبُ رُعْيانُ حَليمَةَ بِغَنَمِها . »

وَيَقولُ الرُّعْيانُ : « إِنَّنا نَغْدو مَعَهُمْ ، وَنَرْعى حَيْثُ

يَرْعَوْنَ ، وَلَكِنَّ غَنَمَهُمْ تَعودُ بِطانًا شِباعًا ، وَتَعودُ أَغْنامُنا خِماصًا جِياعًا ! »

لَقَدْ كانَ الرَّضيعُ « مُحَمَّدٌ » ﷺ خَيْرًا وَبَرَكَةً عَلى حَليمَةَ وَزَوْجِها وَأَبْنائِها ، سارَعَ الخَيْرُ إِلى خَيْمَتِها فَاتَّخَذَ مِنْها مُقامًا ، فَإِذا أَغْنامُها يَتَضاعَفُ عَدَدُها ، وَيَزْدادُ لَبَنُها ، وَإِذا حَليمَةُ وَأَهْلُها يَجِدونَ الشِّبَعَ ، وَيُحِسّونَ الرَّخاءَ ، فَتَمْتَلِئُ صُدورُهُمْ يَقينًا بِأَنَّ في بَيْتِهِمْ طِفْلاً مُبارَكًا !

فَكانَتْ حَليمَةُ تَحْرِصُ عَلَيْهِ أَشَدَّ الحِرْصِ ، وَتَرْعاهُ ما وَسِعَتْها الرِّعايَةُ ، وَتَحوطُهُ بِقَلْبٍ يَفيضُ حُبًّا وَحَنانًا ، وَتَرْقُبُ نُمُوَّهُ الَّذي يَفوقُ نُمُوَّ أَقْرانِهِ ، فَتَزْدادُ بِهِ إِعْجابًا ، وَلَهُ بِرًّا وَحَنانًا ، وَلا يُنَغِّصُ عَلَيْها صَفْوَ سَعادَتِها بِهِ ، إِلا حينَ تَذْكُرُ أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ يَعودَ إِلى أُمِّهِ يَوْمًا ، وَكانَتْ تُؤَجِّلُ هَذا اليَوْمَ ، وَتَسْتَأْنِي بِهِ ، ما اسْتَطاعَتْ إِلى ذَلِكَ سَبيلاً ! وَلَكِنَّ اليَوْمَ آتٍ لا مَحالَةَ ، فَأَرْجَعَتْهُ إِلى أُمِّهِ وَ جَدِّهِ في مَكَّةَ ، وَكانَ قَدْ بَلَغَ السّادِسَةَ مِنْ عُمْرِهِ .. وَكانَ الفِراقُ ، وَلَكِنَّهُ فِراقٌ إِلى حينٍ !

في بَيْتِ جَدِّهِ
عَبْدِ المُطَّلِبِ

أَرْجَعَتْ حَليمَةُ السَّعْدِيَّةُ « مُحَمَّداً » إلى أُمِّهِ آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ في مَكَّةَ ، وَرَأَتْهُ أُمُّهُ طِفْلاً ناضِراً ، صَحيحَ الجِسْمِ ، قَوِيَّ النَّشاطِ ، فَأَرادَتْ أَنْ تَذْهَبَ مَعَهُ إلى زِيارَةِ قَبْرِ أَبيهِ عَبْدِ اللهِ .

وَكانَ أَبوهُ عَبْدُ اللهِ قَدْ ماتَ قَبْلَ وِلادَتِهِ ، وَدُفِنَ في يَثْرِبَ * .

وَلَمّا تَمَّتِ الزِّيارَةُ أَخَذَتْ آمِنَةُ وَمَعَها ابْنُها « مُحَمَّدٌ » وَحاضِنَتُهُ « بَرَكَةُ » في طَريقِ العَوْدَةِ إلى مَكَّةَ ، لَكِنَّ آمِنَةَ مَرِضَتْ في الطَّريقِ ، وَماتَتْ ، وَدُفِنَتْ في مَكانٍ يُسَمّى « الأَبْواء » .

* يثرب : اسم المدينة المنورة قبل هجرة الرسول ﷺ .

عادَتِ الحاضِنَةُ « بَرَكَةُ » وَمَعَها « مُحَمَّدٌ » ﷺ إلى مَكَّةَ حَزينَةً باكِيَةً ، وَأَخْبَرَتْ جَدَّهُ عَبْدَ المُطَّلِبِ بِما وَقَعَ .

ضَمَّ عَبْدُ المُطَّلِبِ الطِّفْلَ « مُحَمَّداً » إلى بَيْتِهِ ، وَعُنِيَ بِرِعايَتِهِ ، وَكانَ يُحِبُّهُ حُبّاً شَديداً ، وَيُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ ، وَيَعْطِفُ عَلَيْهِ ، وَيُجْلِسُهُ إلى جِوارِهِ عَلى فِراشِهِ .

فَقَدْ كانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَجْلِسُ إلى جِوارِ الكَعْبَةِ عَلى فِراشٍ يوضَعُ لَهُ ، وَيَجْلِسُ مِنْ حَوْلِهِ أَبْناؤُهُ بَعيداً عَنِ الفِراشِ ، فَإِذا جاءَ « مُحَمَّدٌ » لَمْ يَجْلِسْ حَيْثُ يَجْلِسُ أَعْمامُهُ ، وَإِنَّما يَجْلِسُ فَوْقَ الفِراشِ إلى جِوارِ جَدِّهِ . وَأَرادَ واحِدٌ مِنْ أَعْمامِهِ أَنْ يَمْنَعَهُ مِنَ الجُلوسِ فَوْقَ الفِراشِ ، لَكِنَّ جَدَّهُ عَبْدَ المُطَّلِبِ قالَ لَهُ : « أُتْرُكِ ابْني يَجْلِسْ فَوْقَ الفِراشِ .. إِنَّ لابْني هذا شَأْناً كَبيراً .»

ظَلَّ « مُحَمَّدٌ » ﷺ في كَفالَةِ جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، يَتَمَتَّعُ بِرِعايَتِهِ سَنَتَيْنِ كامِلَتَيْنِ ، وَيَأْخُذُ عَنْهُ خِلالَ السِّيادَةِ وَالشَّرَفِ ، وَيَتَعَلَّمُ مِنْهُ مَكارِمَ الأَخْلاقِ .

ذاتَ يومٍ بعثَه جدُّهُ عبدُ المُطَّلِبِ إلى رَجُلٍ مِنْ شُيوخِ قُرَيْشٍ اسْمُهُ « حَفْصُ بْنُ مُرَّةَ » وقالَ لَهُ : « ذَكِّرْهُ ، يا بُنَيَّ ، بِنَصيبِهِ في رِفادَةِ الحُجّاجِ وَإطْعامِهِمْ ؛ فَقَدْ كَثُرَ الضِّيفانُ . »

قالَ أحَدُهُمْ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ : « أ لا تَجِدُ غَيْرَ هذا الطِّفْلِ الهادِئِ لِتَبْعَثَهُ إلى شَرِّ خَلْقِ اللهِ ، وَأشَدِّهِمْ بُخْلاً ؟ »

قالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ : « إنّني أرى في ابْني ما لا تَرَوْنَ . انْتَظِرْ وَسَتَرى ! »

انْطَلَقَ مُحَمَّدٌ إلى دارِ حَفْصِ بْنِ مُرَّةَ كَما طَلَبَ مِنْهُ جَدُّهُ ، فَوَجَدَ بابَ الدّارِ مَفْتوحًا ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ كَما كانَتْ عادَتُهُمْ ، بَلْ وَقَفَ في مَكانِهِ ، وَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ ، يَسْتَأْذِنُ صاحِبَ الدّارِ في الدُّخولِ ، وَنادى : « يا عَمِّ حَفْص . »

وَكانَ « حَفْصٌ » يَجْلِسُ في صَحْنِ دارِهِ مَهْمومًا مَحْزونًا ؛ فَقَدْ تَعَسَّرَتْ ناقَةٌ لَهُ في وِلادَتِها ، وَهُوَ يَخافُ أنْ تَموتَ النّاقَةُ أوْ يَموتَ وَليدُها ، فَتَكونَ خَسارَتُهُ عَظيمَةً !

سَمِعَ « حَفْصٌ » النِّداءَ كَما سَمِعَ التَّصْفيقَ ، فَاسْتَغْرَبَ مِنْ هذا الَّذي لا يَدْخُلُ الدّارَ كَما يَدْخُلُ سائِرُ العَرَبِ اقْتِحامًا دونَ اسْتِئْذانٍ . وَما لَبِثَ أنْ قالَ : « اُدْخُلْ ، يا مَنْ تُنادي . »

قالَها في ضيقٍ وَهَمٍّ ، فَهُوَ لا يُريدُ أنْ يَسْتَقْبِلَ في هذِهِ السّاعَةِ أحَدًا ، وَلَكِنَّهُ لا يَسْتَطيعُ أنْ يَرُدَّ عَنْ بابِهِ مَنْ طَرَقَهُ .

دَخَلَ « مُحَمَّدٌ » فَألْقى التَّحِيَّةَ عَلى عَمِّهِ « حَفْصٍ » ، وَرَدَّ « حَفْصٌ » التَّحِيَّةَ في صَوْتٍ تُشْعِرُ نَبْرَتُهُ بِالحُزْنِ وَالغَيْظِ .

وَقَبْلَ أنْ يَسْألَهُ « حَفْصٌ » عَنِ السَّبَبِ في مَجيئِهِ — أسْرَعَ إلَيْهِ غُلامٌ عِنْدَهُ ، يُخْبِرُهُ أنَّ النّاقَةَ وَلَدَتْ ، وَهِيَ سالِمَةٌ صَحيحَةٌ ، كَما أنَّ وَليدَها كَذَلِكَ .

أشْرَقَ وَجْهُ « حَفْصٍ » بِالفَرْحَةِ ، وَقالَ لِمُحَمَّدٍ : « ما أجْمَلَ وَجْهَكَ ! لَقَدْ كانَتْ هذِهِ النّاقَةُ تُعاني في الوِلادَةِ مُنْذُ أمْسِ ، وَما إنْ وَطِئَتْ قَدَماكَ الدّارَ حَتّى ذَهَبَ العُسْرُ ،

وَجاءَ اليُسْرُ ، وَ وَلَدَتِ النّاقَةُ . ما حاجَتُكَ ، يا وَلَدي ، وَإنّي سَأَقْضيها ؟»

قالَ مُحَمَّدٌ : « إنَّ جَدّي عَبْدَ المُطَّلِبِ يُقْرِئُكَ السَّلامَ ، وَيَسْتَوْفيكَ العَهْدَ .»

ضَحِكَ « حَفْصٌ » ضَحِكًا طَويلاً ، ثُمَّ قالَ : « ما أَفْصَحَ لِسانَكَ ! وَما أَرَقَّ طَريقَتَكَ ! إنَّني لَمُوفٍ بِالعَهْدِ ، وَزائِدٌ عَلَيْهِ .»

ثُمَّ نادى رُعْيانَهُ ، وَقالَ لَهُمْ : « قودوا إلى عَبْدِ المُطَّلِبِ خَمْسًا مِنَ الإبِلِ ، وَاحْمِلوا وَلَدَهُ هذا عَلى واحِدَةٍ ، هِيَ هَدِيَّةٌ مِنّي إلَيْهِ !»

رَجَعَ مُحَمَّدٌ ﷺ إلى جَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ مَسْرورَ الخاطِرِ ، وَقالَ : « إنَّ عَمّي حَفْصًا يُقْرِئُكَ السَّلامَ ، وَيَقولُ لَكَ : إنْ رَغِبْتَ في المَزيدِ زِدْناكَ .»

فَابْتَسَمَ عَبْدُ المُطَّلِبِ ، وَقَدْ رَأى حَفيدَهُ يَسْبِقُ الرِّجالَ ، وَيُسْرِعُ نَحْوَ الكَمالِ .

وَلَكِنَّ الفَرْحَةَ لَمْ تَدُمْ ، فَقَدْ طَرَقَ المَوْتُ بابَ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَبَقِيَ « مُحَمَّدٌ » ﷺ يَذوقُ مَرارَةَ الحُزْنِ عَلى جَدِّهِ !

في بَيْتِ عَمِّهِ

أبو طالِب

حينَ اشْتَدَّ المَرَضُ بِجَدِّهِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ، نادى ابْنَهُ « أبو طالِبٍ » وَأوْصاهُ بِأنْ يَكْفُلَ « مُحَمَّداً » وَيرْعاهُ ، وَيَحْرِصَ عَلى العِنايَةِ بِهِ .

وَكانَ « أبو طالِبٍ » عَمُّ « مُحَمَّدٍ » ﷺ رَجُلاً كَثيرَ العِيالِ ، قَليلَ المالِ .

وَلكِنَّ البَرَكَةَ حَلَّتْ في بَيْتِهِ حينَما دَخَلَهُ « مُحَمَّدٌ » ﷺ وَأَصْبَحَ واحِداً مِنْ أبْنائِهِ .

كانَ أبْناءُ « أبو طالِبٍ » إذا جَلَسوا إلى الطَّعامِ لا يَكْفيهِمْ ، وَقاموا وَهُمْ جِياعٌ لَمْ يَشْبَعوا ، فَإذا جَلَسَ مَعَهُمْ « مُحَمَّدٌ » حَلَّتِ البَرَكَةُ في الطَّعامِ ، فَأَكَلوا حَتّى شَبِعوا.

وَلِذَلِكَ كانَ عَمُّهُ « أبو طالِبٍ » يَمْنَعُ أوْلادَهُ مِنَ الجُلوسِ لِتَناوُلِ الطَّعامِ حَتّى يَحْضُرَ « مُحَمَّدٌ » ؛ كَيْ تَعُمَّ البَرَكَةُ ، وَيَكْفِيَ الطَّعامُ .

رَأى الصَّبِيُّ « مُحَمَّدٌ » حالَةَ عَمِّهِ ، فَهُوَ كَثيرُ العِيالِ ، قَليلُ المالِ ، فَعَزَمَ « مُحَمَّدٌ » ﷺ أنْ يَشْتَغِلَ بِعَمَلٍ ، يُنْفِقُ مِنْهُ عَلى نَفْسِهِ ، وَيُعينُ عَمَّهُ .

وَأَلْهَمَهُ اللهُ أنْ يَشْتَغِلَ بِرَعْيِ الغَنَمِ ؛ كَيْ يَتَعَلَّمَ العِنايَةَ بِضِعافِها وَالعَطْفَ عَلى صِغارِها .

وَكانَتِ الغَنَمُ الَّتي يَرْعاها « مُحَمَّدٌ » ﷺ تَجِدُ العُشْبَ الَّذي تَأْكُلُهُ ، وَتَجِدُ الماءَ الَّذي تَشْرَبُهُ ، فَتَسْمَنُ وَتَمْتَلِئُ لَحْماً وَشَحْماً .

كانَ أبو طالِبٍ يُحِبُّ ابْنَ أخيهِ حُبّاً جَمّاً ، وَيَحْنو عَلَيْهِ حُنُوّاً بالِغاً ، وَكانَ « مُحَمَّدٌ » يُبادِلُ عَمَّهُ حُبّاً بِحُبٍّ ، وَعَطْفاً بِعَطْفٍ ، فَكانَ يَتَعَلَّقُ بِهِ ، وَيَحْرِصُ عَلى مُصاحَبَتِهِ، حَتّى إنَّ عَمَّهُ اصْطَحَبَهُ مَعَهُ في رِحْلَةِ قُرَيْشٍ التِّجارِيَّةِ إلى الشّامِ ، وَكانَ عُمْرُهُ - إذْ ذاكَ - تِسْعَ سَنَواتٍ .

فَقَدْ كانَتْ قُرَيْشٌ تَقومُ بِرِحْلَتَيْنِ لِلتِّجارَةِ في كُلِّ عامٍ : تَذْهَبُ إلى اليَمَنِ في الشِّتاءِ ، وَإلى الشّامِ في الصَّيْفِ ، كَما أَخْبَرَ بِذَلِكَ القُرْآنُ الكَريمُ :

﴿ لإيلافِ قُرَيْشٍ . إيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هَذا البَيْتِ . الَّذي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ .﴾

اِصْطَحَبَ أبو طالِبٍ مَعَهُ ابْنَ أَخيهِ ، وَهُوَ شَديدُ الحِرْصِ عَلَيْهِ ، دائِمُ التَّفْكيرِ في أَمْرِهِ ، خاصَّةً بَعْدَ ما سَمِعَ ذَلِكَ اليَهودِيَّ ، الَّذي كانَ يَمْشي في طُرُقاتِ مَكَّةَ ذاتَ يَوْمٍ ، فَرَأى الصِّبْيَةَ يَلْعَبونَ لُعْبَةَ « عَظْم وَضّاح » وَهِيَ لُعْبَةٌ تَقومُ عَلى أَنْ يَأْخُذَ أَحَدُ الصِّبْيَةِ عَظْماً شَديدَ البَياضِ ، ثُمَّ يُلْقيهُ بَعيداً في خَفاءٍ ، وَمَنْ يَعْثُرْ عَلَيْهِ مِنَ الصِّبْيَةِ يَرْكَبُ أَصْحابَهُ . لاحَظَ اليَهودِيُّ أَنَّ الصَّبِيَّ « مُحَمَّداً » يَرْكَبُ أَصْحابَهُ وَلا يَرْكَبُهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، وَيَقودُهُمْ وَلا يَقودونَهُ ، فَدَعاهُ إِلَيْهِ ، وَتَفَرَّسَ فيهِ ، وَتَأَمَّلَهُ طَويلاً ، ثُمَّ قالَ : « وَاللهِ ، لَتَقْتُلَنَّ أَشْرافَ هَذِهِ القَرْيَةِ ، يا غُلامُ !»

الصّادِقُ الأَمينُ

بَلَغَ مُحَمَّدٌ ﷺ مَبْلَغَ الشَّبابِ في بَيْتِ عَمِّهِ أَبي طالِبٍ ، وَعُرِفَ بَيْنَ قُرَيْشٍ بِالأَخْلاقِ العالِيَةِ ، وَالصِّفاتِ السّامِيَةِ ، فَهُوَ لا يَقْتَرِفُ مِنَ الأَفْعالِ السَّيِّئَةِ ما يَقْتَرِفُ الشَّبابُ في قُرَيْشٍ ، وَلا يَلْهو كَما يَلْهونَ ؛ بَلْ هُوَ شابٌّ هادِئٌ مُتَّزِنٌ رَزينٌ ، صاحِبُ عَقْلٍ رَشيدٍ ، وَرَأْيٍ سَديدٍ ، تَثِقُ قُرَيْشٌ في فِعْلِهِ ، وَتُصَدِّقُهُ في قَوْلِهِ ، فَهُوَ عِنْدَها « الصّادِقُ الأَمينُ ».

وَكانَتْ قُرَيْشٌ تَرْضى بِحُكْمِهِ إذا اخْتَلَفَتْ ، وَتَنْزِلُ عِنْدَ رَأْيِهِ إذا اضْطَرَبَتْ ، وَيَجِدُ لَهُ شُيوخُها في نُفوسِهِمْ مَكانَةً رَفيعَةً ، لا يُدانيهِ في ذَلِكَ أَيُّ شابٍّ مِنْ شَبابِ قُرَيْشٍ .

حَدَثَ أَنْ رَغِبَتْ قُرَيْشٌ في تَجْديدِ بِناءِ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، وَلَمّا مَضَتْ عَزيمَتُها في ذَلِكَ ، وَ وَجَدَتْ عَوْنَها في نَجّارٍ

مِصْرِيٍّ كانَ يُقيمُ بِمكَّةَ ، وَ حَصلَتْ على خَشَبٍ لِسَفينةٍ رومِيَّةٍ طَرَحَتْهُ أمْواجُ البَحْرِ عِنْدَ جِدَّة – مَضَتْ قُرَيْشٌ تَعْمَلُ بِجِدٍّ وَاجْتِهادٍ حَتّى بَلَغَتْ مَوْضِعَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ ، فَاخْتَلَفَتْ فيمَنْ يَضَعُهُ في مَوْضِعِهِ ، وَكادَ الاخْتِلافُ يَتَطَوَّرُ إلى صِراعٍ وَقِتالٍ ، وَلَكِنَّ الشُّيوخَ اهْتَدَوْا إلى رَأْيٍ فيهِ كَثيرٌ مِنَ السَّدادِ وَالرَّشادِ .

قالوا : « سَنُحَكِّمُ في هَذا الأَمْرِ أَوَّلَ داخِلٍ عَلَيْنا مِنْ هَذا البابِ . »

اِسْتَقَرَّ على ذَلِكَ رَأْيُهُمْ ، وَتَعَلَّقَتْ بِالبابِ عُيونُهُمْ ، وَإذا أَوَّلُ داخِلٍ عَلَيْهِمْ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وَإذا حَناجِرُهُمْ تَنْطَلِقُ ، وَأَصْواتُهُمْ تَرْتَفِعُ : « هَذا هُوَ الصّادِقُ الأَمينُ ! رَضيناهُ حَكَماً . »

وَحَكَمَ الشّابُّ مُحَمَّدٌ ﷺ بَيْنَ شُيوخِ قُرَيْشٍ ؛ فَأَرْضاهُمْ وَأَطْفَأَ بِحِكْمَتِهِ نارَ العَداوَةِ بَيْنَهُمْ .

قالَ لَهُمْ : « أَحْضِروا لي ثَوْباً . »

وَنَظَرَ الشُّيوخُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ نَظْرَةَ اسْتِغْرابٍ ، وَلَكِنَّهُمْ أَحْضَروا الثَّوْبَ ، فَلَمّا جاءوا بِهِ ، أَخَذَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ بِيَدِهِ الكَريمَةِ ، وَبَسَطَهُ على الأَرْضِ ، وَأَمْسَكَ الحَجَرَ الأَسْوَدَ فَرَفَعَهُ وَ وَضَعَهُ فَوْقَ الثَّوْبِ ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْ كُلِّ شَيْخٍ مِنَ الشُّيوخِ أَنْ يُمْسِكَ بِطَرَفٍ مِنْ أَطْرافِ الثَّوْبِ ، وَ رَفَعوا الحَجَرَ حَتّى وَصَلوا إلى مَوْضِعِهِ في بِناءِ الكَعْبَةِ ، وَهُناكَ أَمْسَكَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ وَ وَضَعَهُ في مَكانِهِ ، الَّذي هُوَ فيهِ حَتّى اليَوْمِ ، وَإلى ما يَشاءُ اللهُ العَزيزُ الحَكيمُ .

زَواجُهُ مِنْ
خَديجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِد

خَديجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، شَرِيفَةٌ في قَوْمِها، غَنِيَّةٌ بِمالِها ، ماتَ عَنْها زَوْجُها ، وَتَرَكَ لَها مالاً كَثيراً . وَرَغِبَ في الزَّواجِ مِنْها سادَةُ قُرَيْشٍ وَأَشْرافُها ؛ لَكِنَّها رَفَضَتِ الزَّواجَ مِنْهُمْ .

وَكانَتْ ، كَجَميعِ الأَغْنِياءِ في قُرَيْشٍ ، تَبْعَثُ بِبَعْضِ مالِها لِلتِّجارَةِ في رِحْلَةِ الشِّتاءِ ، وَفي رِحْلَةِ الصَّيْفِ ، وَتُرْسِلُ مَعَ هَذا المالِ مَنْ يُتاجِرُ لَها فيهِ ، وَيُحافِظُ عَلَيْهِ .

وَكانَتْ تَعْرِفُ مِنْ صِفاتِ « مُحَمَّدٍ » ﷺ ما تَعْرِفُهُ قُرَيْشٌ ، فَهُوَ الصّادِقُ الأَمينُ ، الحَكيمُ الرَّزينُ ، الطّاهِرُ العَفيفُ ، صاحِبُ الخُلُقِ العَظيمِ .

أَرادَتْ خَديجَةُ أَنْ يَذْهَبَ « مُحَمَّدٌ » بِتِجارَتِها إِلى الشّامِ ،

وَ زَيَّنَ لَهُ عَمُّهُ أَبو طالِبٍ هَذِهِ الرِّحْلَةَ ، وَ وافَقَ « مُحَمَّدٌ » عَلى أَنْ يَذْهَبَ بِتِجارَةِ خَديجَةَ إِلى بِلادِ الشّامِ في رِحْلَةِ قُرَيْشٍ إِلَيْها .

وَكانَ « مَيْسَرَةُ » غُلامُ خَديجَةَ رَفيقاً لِمُحَمَّدٍ ﷺ في هَذِهِ الرِّحْلَةِ . وَرَأى مَيْسَرَةُ في هَذِهِ الرِّحْلَةِ عَجَباً :

كانَتْ قافِلَةُ قُرَيْشٍ التِّجارِيَّةُ تَسيرُ في الصَّحْراءِ ، الشَّمْسُ قَوِيَّةٌ ساطِعَةٌ ، وَالرِّمالُ ساخِنَةٌ ، وَالجَوُّ شَديدُ الحَرارَةِ ، وَالعَرَقُ يَسيلُ مِنَ الرِّجالِ ، وَلَكِنَّ سَحابَةً بَيْضاءَ كانَتْ تَسيرُ مَعَ القافِلَةِ ، وَتَنْشُرُ ظِلَّها فَوْقَ « مُحَمَّدٍ » فَلا يَشْعُرُ بِحَرارَةِ الشَّمْسِ ، وَلا يَتَأَذّى مِنْ سُخونَةِ الرِّمالِ ، وَلا يَسيلُ مِنْهُ العَرَقُ .

رَأى مَيْسَرَةُ ذَلِكَ وَعَجِبَ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُخْبِرَ « مُحَمَّداً » ﷺ وَلا غَيْرَهُ مِنْ رِجالِ القافِلَةِ بِما يَرى .

بَلَغَتِ القافِلَةُ بِلادَ الشّامِ ، وَتاجَرَ « مُحَمَّدٌ » ﷺ في مالِ خَديجَةَ ، باعَ وَاشْتَرى في صِدْقٍ وَأَمانَةٍ ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ

تُجّارُ الشّامِ يَشْتَرونَ مِنْهُ ، وَيَبيعونَ إِلَيْهِ . وَرَبِحَ « مُحَمَّدٌ » رِبْحاً كَبيراً عادَ بِهِ إِلى خَديجَةَ صاحِبَةِ التِّجارَةِ .

وَكانَتْ خَديجَةُ - مِثْلُ سائِرِ بُيوتِ قُرَيْشٍ - تَنْتَظِرُ قُدومَ القافِلَةِ ، وَلَمّا سَمِعَتْ بِوُصولِها فَرِحَتْ ، وَ وَقَفَتْ بِبابِ بَيْتِها تَنْتَظِرُ .

وَصَلَ « مُحَمَّدٌ » ﷺ إِلى بَيْتِ خَديجَةَ ، وَمَعَهُ غُلامُها مَيْسَرَةُ ، فَسَلَّمَ إِلَيْها أَمْوالَها ، وَأَعْطَتْهُ أَجْرَهُ عَلى عَمَلِهِ في تِجارَتِها ، وَعادَ إِلى بَيْتِ عَمِّهِ « أَبو طالِبٍ » سَعيداً راضِيَ النَّفْسِ .

وَلَكِنَّ خَديجَةَ كانَتْ تُحِبُّ أَنْ تَسْمَعَ أَخْبارَ الرِّحْلَةِ ، وَ جَلَسَ إِلَيْها غُلامُها مَيْسَرَةُ يَقُصُّ عَلَيْها الأَخْبارَ ، وَيَحْكي لَها عَنِ السَّحابَةِ البَيْضاءِ الَّتي رَآها تَحْمي « مُحَمَّداً » مِنَ الشَّمْسِ الحارِقَةِ ، وَعَنِ التُّجّارِ الَّذينَ أَقْبَلوا عَلَيْهِ ، يَتَعامَلونَ مَعَهُ ، لِصِدْقِهِ وَأَمانَتِهِ ، وَيُحْصي لَها الرِّبْحَ الكَثيرَ الَّذي تَحَقَّقَ في هَذِهِ الرِّحْلَةِ .

اِزْدادَ إِعْجابُ خَديجَةَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَرَغِبَتْ في الزَّواجِ بِهِ ، وَكانَ لَها ما رَغِبَتْ فيهِ ، فَقَدْ ذَهَبَ مُحَمَّدٌ ﷺ مَعَ عَمِّهِ (أَبو طالِبٍ) إِلى دارِ خَديجَةَ وَقَوْمِها ، وَتَزَوَّجَها .

كانَ عُمْرُ « مُحَمَّدٍ » ﷺ حينَئِذٍ خَمْسَةً وَعِشْرينَ عاماً ، وَكانَتْ خَديجَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْها - في الثّامِنَةِ والعِشْرينَ مِنْ عُمْرِها كَما يَقولُ ابنُ عَبّاسٍ .

وَعاشَ « مُحَمَّدٌ » ﷺ مَعَ زَوْجَتِهِ خَديجَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْها - في سَعادَةٍ وَهَناءَةٍ ، وَأَنْجَبَتْ لَهُ مِنَ البَنينَ : القاسِمَ وَعَبْدَ اللهِ ، وَمِنَ البَناتِ : رُقَيَّةَ وَأُمَّ كُلْثومٍ وَفاطِمَةَ وَزَيْنَبَ .

وَماتَ البَنونَ في حَياةِ أَبيهِمْ ، وَكَذَلِكَ البَناتُ إِلا السَّيِّدَةَ فاطِمَةَ الزَّهْراءَ ، فَقَدْ بَقِيَتْ بَعْدَ وَفاتِهِ ﷺ وَلَحِقَتْ بِهِ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ وَفاتِهِ ﷺ .

بَدْءُ الوَحْيِ

كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ في طُفولَتِهِ وَصِباهُ وَشَبابِهِ المَثَلَ الأَعْلى لِفِتْيانِ قُرَيْشٍ وَشَبابِها .

اِشْتَغَلَ بِرَعْيِ الغَنَمِ ، وَهُوَ مِنْ سادَةِ قُرَيْشٍ وَأَشْرافِها ، كَما اشْتَغَلَ بِالتِّجارَةِ .

وَكانَ الصّادِقَ الأَمينَ في كُلِّ ما يَقولُ وَ ما يَفْعَلُ .

وَكانَ صاحِبَ الرَّأْيِ السَّديدِ ، وَالمَشورَةِ الصّائِبَةِ .

وَكانَتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّهُ ، وَتُقَدِّرُهُ ، وَتَحْتَرِمُهُ .

وَلَكِنَّها كانَتْ تَراهُ لا يَعْبُدُ الأَصْنامَ الَّتي تَعْبُدُ ، وَلا يَتَقَرَّبُ إِلَيْها كَما تَتَقَرَّبُ ، وَلا يَحْلِفُ بِها كَما تَحْلِفُ ، مَعَ أَنَّهُ يَطوفُ بِالكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، وَيُقَدِّسُها ، وَيُعَظِّمُها ، وَيَحُجُّ إِلَيْها في مَوْسِمِ الحَجِّ كَما يَحُجُّ سائِرُ العَرَبِ .

وَكانَتْ قُرَيْشٌ تَراهُ يُحِبُّ الخَلْوَةَ ، وَيَذْهَبُ في شَهْرِ رَمَضانَ مِنْ كُلِّ عامٍ إِلى غارٍ في أَعْلى جَبَلِ « حِراء » القَريبِ مِنْ مَكَّةَ .

هُناكَ يَتَأَمَّلُ في الكَوْنِ : في السَّماءِ وَما فيها مِنْ نُجومٍ وَكَواكِبَ ، وَفي الأَرْضِ وَما عَلَيْها مِنْ إِنْسانٍ وَحَيَوانٍ وَنَباتٍ – يُفَكِّرُ في مَخْلوقاتِ اللهِ ، وَيَتَعَبَّدُ على مِلَّةِ سَيِّدِنا إِبْراهيمَ (عَلَيْهِ السَّلامُ) .

وَبَيْنَما كانَ مُحَمَّدٌ ﷺ في غارِ « حِراء » ، يَتَعَبَّدُ كَعادَتِهِ ، وَيَتَأَمَّلُ في الكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ ، وَكانَ قَدْ بَلَغَ الأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِهِ ، وَاكْتَمَلَ رُشْدُهُ – بَيْنَما هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جاءَهُ مَلَكُ الوَحْيِ جِبْريلُ (عَلَيْهِ السَّلامُ)، فَقالَ لَهُ :

« اِقْرَأْ ، يا مُحَمَّدُ .»

قالَ مُحَمَّدٌ : « ما أَنا بِقارِئٍ .» فَمُحَمَّدٌ ﷺ لَمْ يَتَعَلَّمِ القِراءَةَ وَلا الكِتابَةَ ، فَكَيْفَ يَقْرَأُ وَهُوَ أُمِّيٌّ ؟

فَضَمَّهُ جِبْريلُ إِلَيْهِ ضَمَّةً شَديدَةً ، وَقالَ لَهُ : « اِقْرَأْ .»

قالَ مُحَمَّدٌ ﷺ : « ما أنا بِقارِئٍ . »

فَضَمَّهُ جِبْرِيلُ مَرَّةً أخرى ، وَقالَ لَهُ : « اِقْرَأْ . »

قالَ مُحَمَّدٌ ﷺ : « ماذا أقْرَأُ ؟ »

فَأرْسَلَهُ جِبْرِيلُ (عَلَيْهِ السَّلامُ)، وَقالَ لَهُ :

﴿ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ. خَلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَقٍ . اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ . الَّذي عَلَّمَ بِالقَلَمِ . عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ .﴾

وَكانَتْ هَذِهِ الآياتُ الكَرِيمَةُ أوَّلَ ما نَزَلَ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ . وَكانَ ذَلِكَ في لَيْلَةِ القَدْرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضانَ ، تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتي كَرَّمَها اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ في كِتابِهِ :

﴿ إنّا أنْزَلْناهُ في لَيْلَةِ القَدْرِ . وَما أدْراكَ ما لَيْلَةُ القَدْرِ . لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ ألْفِ شَهْرٍ . تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرّوحُ فيها بِإذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أمْرٍ . سَلامٌ هِيَ حَتّى مَطْلَعِ الفَجْرِ.﴾

وَحَثَّ الرَّسولُ ﷺ المُسْلِمينَ عَلى إحْيائِها بِالذِّكْرِ وَتِلاوَةِ القُرْآنِ .

وَهِيَ في اللَّيالي المُفْرَدَةِ مِنَ العَشْرِ الأواخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضانَ . وَتَكادُ تَكونُ لَيْلَةَ السّابِعِ وَالعِشْرينَ مِنَ الشَّهْرِ الكَريمِ .

رَجَعَ مُحَمَّدٌ ﷺ إلى بَيْتِهِ ، وَهُوَ يَرْتَعِدُ وَيَرْتَعِشُ ، وَيَقولُ:

« زَمِّلوني ! زَمِّلوني !» أيْ لُفّوني بِغِطاءٍ .

وَاسْتَقْبَلَتْهُ زَوْجَتُهُ السَّيِّدَةُ خَديجَةُ (رَضِيَ اللهُ عَنْها) بِما تَسْتَقْبِلُ بِهِ الزَّوْجَةُ الكَريمَةُ زَوْجَها الَّذي تُحِبُّهُ ، وَ وَضَعَتْ فَوْقَهُ الأغْطِيَةَ ، وَأخَذَتْ تُهَدِّئُ مِنْ رَوْعِهِ ، وَتَطْرُدُ عَنْهُ خَوْفَهُ ، وَتَحُثُّهُ عَلى أنْ يَحْكِيَ لَها ما وَقَعَ لَهُ .. فَلَمّا أخْبَرَها بِما وَقَعَ راحَتْ تُطَمْئِنُهُ وَتُثَبِّتُهُ ، وَتَقولُ لَهُ :

« وَاللهِ لا يُخْزيكَ اللهُ أبَداً . »

وَكانَتْ أوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَصَدَّقَهُ في دَعْوَتِهِ ، فَكانَتْ كَما حَدَّثَ عَنْها التّاريخُ « حاضِنَةَ الإسْلامِ » .

وَكانَ مُحَمَّدٌ ﷺ قَدْ أخَذَ ابْنَ عَمِّهِ « عَلِيَّ بْنَ أبي طالِبٍ » لِيَعيشَ مَعَهُ ، بَعْدَ أنْ تَزَوَّجَ خَديجَةَ ؛ فَقَدْ أصابَتْ

قُرَيْشًا أزمَةٌ شَديدَةٌ ، وكانَ أبو طالِبٍ كَثيرَ العِيالِ ، قليلَ المالِ ، فَقالَ الرَّسولُ ﷺ لِعمِّهِ العَبّاسِ ، وكانَ أغْنى بَني هاشِمٍ في ذَلِكَ الحين :

« إنَّكَ ترى ما أصابَ النّاسَ مِنْ هَذِهِ الأزْمَةِ الطّاحِنَةِ ، وَترى ما حَلَّ بِأخيكَ أبي طالِبٍ وَعِيالِهِ . اِنْطَلِقْ بنا نُخَفِّفْ عَنْهُ ، فَنَأخُذَ مِنْ عِيالِهِ : آخُذُ واحِداً وَتَأخُذُ أنْتَ واحِداً . »

وَانْطَلَقا ، فأخَذَ الرَّسولُ ﷺ عَلِيًّا ، وَأخَذَ العَبّاسُ جَعْفَراً .

وَحينَ جاءَ الوَحْيُ كانَ عَلِيٌّ قَدْ بَلَغَ مِنَ العُمْرِ عَشْرَ سَنَواتٍ ، فَلَمّا اسْتَمَعَ إلى ما يَقولُهُ ابْنُ عَمِّهِ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ ، فَكانَ أوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ الصِّبْيانِ . ثُمَّ أسْلَمَ بَعْدَهُ « زَيْدُ بْنُ حارِثَةَ » وَقَدْ كانَ عَبْداً مَمْلوكاً لِلسَّيِّدَةِ خَديجَةَ ، فَلَمّا تَزَوَّجَها مُحَمَّدٌ ﷺ وَهَبَتْهُ لَهُ ، فَأعْتَقَهُ مِنَ الرِّقِّ ، وَكَفَلَ لَهُ حُرِّيَّتَهُ ، وَكَرَّمَهُ فاتَّخَذَهُ ابْناً لَهُ . وَكانَ ذَلِكَ قَبْلَ أنْ يوحى إلَيْهِ .

وَشَرَعَ الرَّسولُ ﷺ يُحَدِّثُ بَعْضَ أصْحابِهِ بِالدَّعْوَةِ سِرًّا ،

وَكانَ أوَّلَ صاحِبٍ لَهُ آثَرَهُ بِحَديثِهِ هُوَ أبو بَكْرٍ ، فَلَمْ يَتَرَدَّدْ في تَصْديقِهِ وَالإيمانِ بِهِ ، فَكانَ أوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ الرِّجالِ .

وَأبو بَكْرٍ تاجِرٌ أمينٌ ، مَعْروفٌ في قُرَيْشٍ بِالجِدِّ وَالاسْتِقامَةِ ، وَلَهُ أصْدِقاءُ كَثيرونَ ، يُحِبّونَهُ وَيَحْتَرِمونَهُ ، فَأخَذَ يَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الإسْلامَ ، وَيُحَبِّبُ إلَيْهِمُ الإيمانَ ، فَأسْلَمَ عَلى يَدَيْهِ كَثيرونَ ، مِنْهُمْ : عُثْمانُ بْنُ عَفّانَ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَسَعْدُ بْنُ أبي وَقّاصٍ ، وَطَلْحَةُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ .

الدَّعْوَةُ سِرًّا

بَدأتِ الدَّعْوَةُ الإسْلامِيَّةُ تَنْتَشِرُ في قُرَيْشٍ ، وَ راحَ كَثيرٌ مِنَ العَبيدِ وَالمُسْتَضْعَفينَ ، وَقَليلٌ مِنَ السّادَةِ وَالأشْرافِ يَدْخُلونَ في الإسْلامِ ، وَيَتْرُكونَ عِبادَةَ الأصْنامِ .

ضاقَتْ قُرَيْشٌ بِما حَصَلَ ، وَأظْهَرتِ الغَضَبَ مِنْ أجْلِ آلِهَتِها وَأصْنامِها ؛ وَلَكِنَّها – في الحَقيقَةِ – كانَتْ تَخْشى عَلى سِيادَتِها ؛ فَأخَذَتْ تُعَذِّبُ العَبيدَ وَالمُسْتَضْعَفينَ ، وَتُؤْذي الأحْرارَ وَالأشْرافَ .

كانَ يَقودُ قافِلَةَ التَّعْذيبِ وَالإيذاءِ « أبو جَهْلٍ » وَاسْمُهُ الأصْلِيُّ « عَمرو بْنُ هِشام » ، وَلَكِنَّ المُسْلِمينَ أطْلَقوا عَلَيْهِ اسْمَ « أبو جَهْل » لِبَطْشِهِ وَحُمْقِهِ .

كانَ « أبو جَهْل » يَحْقِدُ عَلى سَيِّدِنا مُحَمَّدٍ ﷺ طَوالَ حَياتِهِ :

فَأبو جَهْل شَريفٌ في قَوْمِهِ ، سَيِّدٌ مِنْ ساداتِهِمْ ، غَنِيٌّ مِنْ أغْنِيائِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ كانَ يَرى قَوْمَهُ يُعَظِّمونَ مُحَمَّداً ﷺ وَيُقَدِّرونَهُ ، وَيُحِبّونَهُ وَيَحْتَرِمونَهُ ، وَيُصَدِّقونَهُ وَيَأتَمِنونَهُ – يَرى أبو جَهْل قُرَيْشاً تَفْعَلُ ذَلِكَ فَيَغْتاظُ غَيْظاً شَديداً ، وَيَحْقِدُ عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ حِقْداً مَريراً . فَلَمّا اخْتارَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ) مُحَمَّداً رَسولاً ، يَدْعو النّاسَ إلى عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، وَتَرْكِ عِبادَةِ الأصْنامِ – حينَئِذٍ وَجَدَ أبو جَهْل الفُرْصَةَ لِيُؤْذِيَ مُحَمَّداً ﷺ ، وَيُعَذِّبَ أتْباعَهُ ، وَقُرَيْشٌ تُسانِدُهُ وَتُساعِدُهُ ، وَلا تَصُدُّهُ وَلا تُعارِضُهُ .

وَفي مَرَّةٍ قالَ أبو جَهْل لأصْحابِهِ : « وَاللهِ لَوْ رَأيْتُ مُحَمَّداً يُصَلّي في الكَعْبَةِ فَسَأدوسُ بِقَدَمي هَذِهِ عَلى رَقَبَتِهِ .»

وَجاءَ سَيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ في هُدوءٍ وَ وَقارٍ ، وَطافَ بِالكَعْبَةِ ، ثُمَّ وَقَفَ يُصَلّي .

وَقالَ القَوْمُ لأبي جَهْل : « هَيّا نَفِّذْ وَعيدَكَ .»

وَمَشى أبو جَهْل في كِبْرِياءَ وَعَظَمَةٍ ، حَتّى أصْبَحَ قَريبًا مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَلكِنَّهُ وَقَفَ ساكِنًا ، لَمْ يَتَقَدَّمْ إلى الأمامِ خُطْوَةً ، وَأَصْحابُهُ يَنْظُرونَ إلَيْهِ ، وَيَنْتَظِرونَ ، وَأبو جَهْلٍ ساكِنٌ لا يَتَحَرَّكُ ، وَلا يَتَقَدَّمُ إلى الأمامِ خُطْوَةً .

ثُمَّ رَجَعَ إلى أَصْحابِهِ خائِفًا مَذْعورًا ، وَجْهُهُ أَصْفَرُ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ وَالفَزَعِ .

قالَ لَهُ أَصْحابُهُ : « ما لَكَ ، يا أبا الحَكَمِ ؛ لَمْ تَصْنَعْ بِمُحَمَّدٍ ما وَعَدْتَ ؟»

قالَ أبو جَهْلٍ وَالخَوْفُ يُسَيْطِرُ عَلَيْهِ : « لَقَدْ رَأَيْتُ بَيْني وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ حُفْرَةً ، فيها نارٌ شَديدَةٌ ، لَوْ تَقَدَّمْتُ خُطْوَةً واحِدَةً لَسَقَطْتُ فيها .»

حَمّالَةُ الحَطَبِ

أَمَرَ اللهُ – سُبْحانَهُ – الرَّسولَ ﷺ أَنْ يُنْذِرَ أَهْلَهُ الأَقْرَبينَ ، فَقالَ تَعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبينَ .﴾

وَأَطاعَ الرَّسولُ ﷺ أَمْرَ رَبِّهِ ، وَصَعِدَ فَوْقَ جَبَلٍ قَريبٍ مِنْ مَكَّةَ ، وَنادى : « يا مَعْشَرَ بَني عَبْدِ مَنافٍ .»

فَخَرَجوا إِلَيْهِ جَميعًا : الشُّيوخُ وَالشَّبابُ ، والكِبارُ وَالصِّغارُ . قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ لِعَشيرَتِهِ وَأَهْلِهِ ما مَعْناهُ :

« لَوْ أَنَّني أَخْبَرْتُكُمْ بِأَنَّ جَيْشًا قَوِيًّا وَراءَ هذا الجَبَلِ ، يُريدُ أَنْ يُحارِبَكُمْ ، وَيَسْتَوْلِيَ عَلى دِيارِكُمْ وَأَمْوالِكُمْ – هَلْ تُصَدِّقونَ قَوْلي ؟»

قالَ القَوْمُ : « نَعَمْ ، ما جَرَّبْنا عَلَيْكَ كَذِبًا .»

قالَ لَهُمُ الرَّسولُ ﷺ : « إِنَّني رَسولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ،

أدْعوكُمْ إلى عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، وَتَرْكِ عِبادَةِ الأصْنامِ .»

قالَ لَهُ عَمُّهُ أبو لَهَبٍ ، وَاسْمُهُ عَبْدُ العُزَّى بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ : « تَبًّا لَكَ (هَلاكًا لكَ) ! ألِهَذا جَمَعْتَنا ؟»

رَجَعَ أبو لَهَبٍ إلى بَيْتِهِ ، وَأخْبَرَ زَوْجَتَهُ بِما قالَهُ محمد ﷺ ، وَكانَتْ زَوْجَتُهُ (أُمُّ جَميلٍ بِنْتُ حَرْب) تَحْقِدُ عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَتَعاوَنَتْ مَعَ زَوْجِها لإيذاءِ الرَّسولِ ﷺ وَمُضايَقَتِهِ .

وَأوَّلُ ما فَعَلَتْهُ هِيَ وَزَوْجُها أبو لَهَبٍ أنَّها كانَتْ قَدْ خَطَبَتْ لِوَلَدَيْها بِنْتَيْنِ مِنْ بَناتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ فَفَسَخَتْ هَذِهِ الخِطْبَةَ .

ثُمَّ راحَتْ تَحْمِلُ الشَّوْكَ وَالحَطَبَ وَتَضَعُهُ في طَريقِ الرَّسولِ ﷺ إلى بَيْتِهِ ، وَتوقِدُ نارَ العَداوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المُشْرِكينَ ؛ وَلِذَلِكَ تَوَعَّدَها اللهُ بِالعَذابِ الشَّديدِ هِيَ وَزَوْجَها ، وَنَزَلَتْ بِذَلِكَ سورَةُ « المَسَد » :

﴿ تَبَّتْ يَدا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ . ما أغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما

كَسَبَ . سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأتُهُ حَمّالَةَ الحَطَبِ . في جيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ .﴾

فَأبو لَهَبٍ سَيَصْلى ناراً شَديدَةَ اللَّهَبِ ، أيْ أنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – سَيُعَذِّبُهُ بِعَذابٍ مِنْ جِنْسِ كُنْيَتِهِ الَّتي يَحْمِلُها وَيَعْتَزُّ بِها ، لأنَّها تَدُلُّ عَلى شِدَّةِ حُسْنِهِ (أبو لَهَب) . أمّا زَوْجَتُهُ « أُمُّ جَميل » فَقَدْ تَوَعَّدَها اللهُ بِعَذابٍ مِنْ جِنْسِ عَمَلِها ، فَهِيَ تَحْمِلُ الحَطَبَ في الآخِرَةِ ، لِيوقَدَ بِهِ في نارِ جَهَنَّمَ عَلى زَوْجِها أبي لَهَبٍ ، فَجَعَلَ اللهُ زِيادَةَ عَذابِهِ عَلى يَدِ أحَبِّ النّاسِ إلَيْهِ ، وَجَعَلَها سَبَباً في زِيادَةِ عَذابِ أقْرَبِ النّاسِ إلَيْها ، وَأعَزِّهِمْ عِنْدَها .

الجَهْرُ بِالدَّعْوَةِ

اِسْتَجابَ اللهُ دَعْوَةَ النَّبِيِّ ﷺ ، في أنْ يُعِزَّ الإسْلامَ بِأحَدِ العُمَرَيْنِ * ، وَأسْلَمَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ .

وَلَمّا أسْلَمَ عُمَرُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – اقْتَرَحَ عَلى النَّبِيِّ ﷺ أنْ يَجْهَروا بِالدَّعْوَةِ ، وَأنْ يُظْهِرَ المُسْلِمونَ إسْلامَهُمْ أمامَ أهْلِ مَكَّةَ ، وَأنْ يُقيموا صَلاتَهُمْ عِنْدَ الكَعْبَةِ .

وَفَرِحَ الرَّسولُ ﷺ ، وَخَرَجَ المُسْلِمونَ مِنْ دارِ الأرْقَمِ ابْنِ أبي الأرْقَمِ في صَفَّيْنِ : عَلى رَأسِ أحَدِهِما عُمَرُ ابْنُ الخَطّابِ ، وَعَلى رَأسِ الثّاني حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ .

وَلَمّا رَأى المُشْرِكونَ مَوْكِبَ المُسْلِمينَ ضاقَتْ نُفوسُهُمْ، وَأكَلَ الغَيْظُ قُلوبَهُمْ ؛ فَقَدْ أدْرَكوا أنَّ المُسْلِمينَ أصْبَحوا قُوَّةً بِإسْلامِ حَمْزَةَ وَ عُمَرَ .

* عمر بن الخطاب و عمرو بن هشام (أبو جهل) .

نَشِطَ أبو جَهْلٍ ، وَنَشِطَ أعْوانُهُ ؛ يُعَذِّبونَ الضُّعَفاءَ وَالعَبيدَ مِنَ المُسْلِمينَ ؛ لِكَيْ يَرْجِعوا عَنِ الإسْلامِ ، وَيَعودوا إلى عِبادَةِ الأصْنامِ .

وَسَقَطَتْ أوَّلُ شَهيدَةٍ في الإسْلامِ « سُمَيَّةُ » – رَضِيَ اللهُ عَنْها – زَوْجَةُ « ياسِر » وَأُمُّ « عَمّار بن ياسِر » .

لَمْ يَضْعُفِ المُسْلِمونَ ، وَأصَرّوا عَلى إسْلامِهِمْ ؛ فَقَدِ اسْتَقَرَّ الإسْلامُ في صُدورِهِمْ ، وَاطْمَأنَّتْ إلَيْهِ نُفوسُهُمْ ، وَذاقَتْ حَلاوَتَهُ قُلوبُهُمْ .

كانَ أمَيَّةُ بْنُ خَلَف – وَهُوَ مِنْ أغْنِياءِ قُرَيْشٍ وَسادَتِها – يُعَذِّبُ عَبْدَهُ « بِلالَ بْنَ رَباح » ، وَيَجُرُّهُ عَلى الرِّمالِ المُحْرِقَةِ ، وَيَضَعُ عَلى صَدْرِهِ الأحْجارَ الغَليظَةَ ، وَلَكِنَّ سَيِّدَنا بِلالاً كانَ يَهْتِفُ بِاسْمِ رَبِّهِ ، وَيَقولُ: « أحَدٌ ، أحَدٌ .» ؛ أيِ اللهُ رَبِّي واحِدٌ لا شَريكَ لَهُ مِنَ الأصْنامِ ، وَلا مِنَ النّاسِ .

وَلَمْ يُنْقِذْهُ مِنْ تَعْذيبِ الكُفّارِ إلا سَيِّدُنا أبو بَكْرٍ (رَضِيَ

اللهُ عَنْهُ) ، فَقَدِ اشْتَراهُ مِنْ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَف ، وَأعْتَقَهُ ، وَأصْبَحَ « بِلالٌ » حُرًّا . وَقَدِ اخْتارَهُ الرَّسولُ ﷺ لِيَكونَ المُؤَذِّنَ الَّذي يَدْعو المُسْلِمينَ إلى الصَّلاةِ ، وَذَلِكَ حينَما شُرِعَ الأذانُ في المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ .

الحِقْدُ

أَنْذَرَ الرَّسولُ ﷺ عَشيرَتَهُ الأَقْرَبينَ ، كَما أَمَرَهُ رَبُّهُ ، وَ وَقَفَ مِنْهُ عَمُّهُ « أبو لَهَب » مَوْقِفًا مُنْكَرًا ، وَلَكِنَّ كَثيرًا مِنَ المُسْتَضْعَفينَ وَالعَبيدِ بَدَأوا يَدْخُلونَ في الإِسْلامِ : وَجَدوا فيهِ عِزَّتَهُمْ وَكَرامَتَهُمْ ، وَراحَةَ بالِهِمْ ، وَطُمَأْنينَةَ صُدورِهِمْ ، وَسَكينَةَ نُفوسِهِمْ . وَكَذَلِكَ دَخَلَ في دينِ اللهِ بَعْضُ السّادَةِ وَالأَشْرافِ مِنْ قُرَيْشٍ .

وَكانَ سادَةُ قُرَيْشٍ يَعْرِفونَ حَقَّ المَعْرِفَةِ أَنَّ الإِسْلامَ هُوَ الدّينُ الحَقُّ ، وَأَنَّ القُرْآنَ الكَريمَ الَّذي يَتْلوهُ عَلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ ﷺ لا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ مِنْ عَمَلِ البَشَرِ ، وَلا مِنْ كَلامِهِمْ ، وَلَكِنَّ هَؤُلاءِ السّادَةَ وَالأَشْرافَ كانوا يَخافونَ عَلى سُلْطانِهِمْ أَنْ يَضيعَ ، وَيَخْشَوْنَ عَلى مَجْدِهِمْ أَنْ يَزولَ ، وَيَحْقِدونَ عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ جاءَتْهُ النُّبُوَّةُ ، وَاخْتارَهُ اللهُ مِنْ

دونَهم ، وَهُوَ اليتيمُ الفقيرُ ، وَهُمُ الأغْنِياءُ الأقْوِياءُ .

فَقَدْ كانوا يَذْهَبونَ في اللَّيْلِ إلى دارِ الرَّسولِ ﷺ ، وَيَتَّخِذونَ مَجالِسَهُمْ حَوْلَها ، يَسْتَمِعونَ إلى ما يَتْلوهُ مِنْ قُرْآنٍ كَريمٍ وَهُوَ يُصَلّي في بَيْتِهِ .

حَدَثَ مَرَّةً أنْ ذَهَبَ أبو سُفْيانَ وَأبو جَهْلٍ وَالأخْنَسُ بْنُ شُرَيْق ، وَجَلَسَ كُلُّ واحِدٍ في مَكانٍ بِحَيْثُ يَسْتَمِعُ إلى ما يَتْلوهُ الرَّسولُ ﷺ مِنْ قُرْآنٍ ، وَكُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَظُنُّ أنَّهُ وَحْدَهُ ، فَهُوَ لا يَعْلَمُ بِوُجودِ أحَدٍ سِواهُ . حَتّى إذا طَلَعَ الفَجْرُ قامَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ مِنْ مَكانِهِ ، وَسَلَكَ طَريقَهُ إلى بَيْتِهِ ، حَتّى لا يَراهُ أحَدٌ ، وَلا يَطَّلِعَ عَلى أمْرِهِ النّاسُ ، فَإذا بِهِمْ يَلْتَقونَ في بَعْضِ الطَّريقِ ، وَيَعْرِفُ كُلٌّ مِنْهُمْ أمْرَ صاحِبِهِ ؛ فَتَعاهَدوا عَلى أنْ لا يَعودوا لِمِثْلِ ذَلِكَ مَرَّةً أخْرى ، فَلَوْ رَآهُمُ الضُّعَفاءُ مِنْ قَوْمِهِمْ لَسَخِروا مِنْهُمْ ، وَلآمَنوا بِما جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ .

وَلَمّا كانَتِ اللَّيْلَةُ الثّانِيَةُ عادَ كُلُّ واحِدٍ مِنَ الثَّلاثَةِ إلى

مَجْلِسِهِ ، وَباتوا يَسْتَمِعونَ إلى القُرْآنِ الكَريمِ يَتْلوهُ الرَّسولُ ﷺ ، حَتّى إذا طَلَعَ الفَجْرُ وَتَرَكَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ مَكانَهُ ، وَاتَّخَذَ طَريقَهُ إلى بَيْتِهِ – جَمَعَهُمُ الطَّريقُ ، فَتَلاوَموا عَلى ما كانَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ اتَّفَقوا عَلى أنْ لا يَعودوا لِمِثْلِها أبَداً .

وَلَمّا كانَتِ اللَّيْلَةُ الثّالِثَةُ أخَذَ كُلُّ واحِدٍ مِنَ الثَّلاثَةِ مَجْلِسَهُ ، وَباتوا لَيْلَتَهُمْ يَسْتَمِعونَ لِما يَتْلوهُ الرَّسولُ الكَريمُ مِنْ قُرْآنٍ ، حَتّى إذا طَلَعَ الفَجْرُ تَخَلّى كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ عَنْ مَجْلِسِهِ ، وَسَلَكَ طَريقَهُ إلى بَيْتِهِ ، فَجَمَعَهُمُ الطَّريقُ كَما جَمَعَهُمْ في اللَّيْلَتَيْنِ السّابِقَتَيْنِ ، فَتَلاوَموا لَوْماً شَديداً ، وَلَمْ يَفْتَرِقوا إلا بَعْدَ أنْ شَدَّدوا العَهْدَ وَالميثاقَ عَلى أنْ لا يَعودوا إلى ذَلِكَ أبَداً .

فَلَمّا أصْبَحَ الصَّباحُ ، وَأشْرَقَتِ الشَّمْسُ ، وَدَبَّتِ الحَياةُ في مَكَّةَ – أخَذَ « الأخْنَسُ بْنُ شُرَيْق » عَصاهُ ، وَخَرَجَ يَتَوَكَّأُ عَلَيْها ، قاصِداً بَيْتَ أبي سُفْيانَ .

اسْتَقْبَلَهُ « أبو سُفْيانَ » مُرَحِّبًا بِهِ ، مُتَخَوِّفًا مِنْهُ ، وَلَكِنَّ

الأخْنَس قالَ لَهُ : « أخبِرْني ، يا أبا سُفْيانَ ، ما رَأْيكَ فيما سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ ؟»

أجابَ أبو سُفْيانَ : « وَاللهِ ، يا أخي ، لَقَدْ سَمِعْتُ أشْياء أعْرِفُها ، وَأعْرِفُ مَعْناها ، وَلا أنْكِرُ مِنْها شَيْئًا ، وَسَمِعْتُ أشْياءَ لا أعْرِفُها ، وَلا أدْري ما يُرادُ بِها .»

قالَ الأخْنَسُ : « وَأنا – واللهِ – كَذَلِكَ ، يا أبا سُفْيانَ.»

ثُمَّ تَرَكَ الأخْنَسُ صاحِبَهُ أبا سُفْيانَ في بَيْتِهِ ، وَخَرَجَ يَتَوَكَّأُ عَلى عَصاهُ ، قاصِداً بَيْتَ « أبي جَهْل » .

اِسْتَقْبَلَهُ أبو جَهْل – كَما اسْتَقْبَلَهُ أبو سُفْيانَ مِنْ قَبْلُ – مُرَحِّبًا بِهِ ، مُتَخَوِّفًا مِنْهُ ، وَلَكِنَّ الأخْنَسَ قالَ لَهُ : « ما رَأْيكَ ، يا أبا الحَكَم ، فيما سَمِعْتَ مِنْ مُحَمَّدٍ ؟ »

قالَ أبو جَهْل ، وَكانَ مِنْ بَني مَخْزومٍ ، : « تَعْرِفُ ، يا أخْنَسُ ، أنَّنا تنازَعْنا السِّيادَةَ وَالشَّرَفَ مَعَ بَني هاشِمٍ : أطْعَمَ بَنو هاشِمٍ النّاسَ ، وَأعْطَوْهُمُ المالَ ؛ فَأطْعَمْنا وَأعْطَيْنا ، حَتّى أصْبَحْنا مُتَساوِيَيْنِ في المكانَةِ وَالشَّرَفِ . ثُمَّ

جاءَ بَنو هاشِمٍ وَقالوا مِنّا نَبِيٌّ يُوحَى إلَيْهِ مِنَ السَّماءِ ، فَمَتى نَسْتَطيعُ نَحْنُ – بَني مَخْزومٍ – أنْ نَبْلُغَ هَذِهِ المَنْزِلَةَ الَّتي بَلَغوها ؟ وَاللهِ ، لا نُؤْمِنُ بِهِ أبَداً ، وَلا نَدينُ بِما جاءَ بِهِ أبَداً ، وَلا نُصَدِّقُهُ فيما يَقولُ أبَداً !»

فَتَرَكَهُ الأخْنَسُ ، وَمَضى لِشَأْنِهِ ، وَهُوَ يَشْعُرُ أنَّ الحِقْدَ عَلى مُحَمَّدٍ يَأْكُلُ قَلْبَ أبي جَهْل ، وَأنَّ عَداوَتَهُ لَهُ ، وَغَيْظَهُ مِنْهُ – لَيْسَتْ بِسَبَبِ الآلِهَةِ الَّتي يَعْبُدُها وَتَعْبُدُها قُرَيْشٌ ، وَإنَّما لأسْبابٍ شَخْصِيَّةٍ لا عَلاقَةَ بَيْنَها وَبَيْنَ الدّينِ مِنْ قَريبٍ أوْ بَعيدٍ !

المُفاوَضاتُ

الجَوْلةُ الأولى : مَعَ الرَّسولِ ﷺ

أَسْلَمَ حَمزَةُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمُّ الرَّسولِ ﷺ ، وَأَسْلَمَ عُمَرُ بْنُ الخَطّابِ ؛ فَأَدْرَكَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ الإسْلامَ قَدْ عَزَّ وَامْتَنَعَ ، وَرأَتِ المُسْلِمينَ لا يَسْتَخْفونَ بِصَلاتِهِمْ ، وَلا يَكْتُمونَ إِسْلامَهُمْ . وَرأَتْ أَنَّ الإسْلامَ قَدْ أَخَذَ يَفْشو في مَكَّةَ وَيَظْهَرُ ؛ فَفَكَّرَتْ في أَنْ تَأْخُذَ الأُمورَ بِشَيْءٍ مِنَ اللِّينِ وَالمُرونَةِ ، فَقالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ اسْمُهُ « عُتْبَةُ بْنُ رَبيعَةَ » : « يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، ما رَأْيُكُمْ في أَنْ أَذْهَبَ إلى مُحَمَّدٍ وَأُكَلِّمَهُ ، وَأَعْرِضَ عَلَيْهِ أُموراً لَعَلَّهُ يَقْبَلُها ؟ »

قالَ القَوْمُ : « اذْهَبْ ، يا عُتْبَةُ ، وَنَحْنُ مُوافِقونَ عَلى كُلِّ ما تَصِلُ إِلَيْهِ مَعَهُ . »

كانَ الرَّسولُ ﷺ جالِسًا في المَسْجِدِ الحَرامِ وَحْدَهُ ،

فَذَهَبَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ ، وَتَلَطَّفَ مَعَهُ في الحَديثِ .

قالَ : « يا ابْنَ أَخي ، أَنْتَ فينا رَجُلٌ رَفيعُ الحَسَبِ أَصيلُ النَّسَبِ ، لَكَ مَنْزِلَةٌ عالِيَةٌ ، وَشَرَفٌ عَزيزٌ ، وَقَدْ جِئْتَ قَوْمَكَ بِما يَكْرَهونَ . تَرَكْتَ دينَهُمْ وَدينَ آبائِهِمْ ، وَسَفَّهْتَ عُقولَهُمْ ، وَعِبْتَ آلِهَتَهُمْ . وَإِنِّي أَعْرِضُ عَلَيْكَ أُموراً ، وَأَضْمَنُ لَكَ تَنْفيذَ ما تُوافِقُ عَلَيْهِ مِنْها ، وَأَكْفُلُ لَكَ وَفاءَ قُرَيْشٍ بِوَعْدِها . »

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « قُلْ ، أَسْمَعْ . »

قالَ عُتْبَةُ : « يا بْنَ أَخي ، إِنْ كُنْتَ تَطْلُبُ بِهذا الَّذي تَدْعو إِلَيْهِ مالاً جَمَعْنا لَكَ مِنْ أَمْوالِنا ما يَجْعَلُكَ أَكْثَرَنا غِنًى . وَإِنْ كُنْتَ تَطْلُبُ بِهِ جاهاً وَسُلْطاناً سَوَّدْناكَ عَلَيْنا ، فَلا نَقْطَعُ أَمْرًا دونَ مَشورَتِكَ وَالرُّجوعِ إِلَيْكَ . وَإِنْ كانَ هذا الَّذي يَأْتيكَ داءً مِنَ الأَدْواءِ وَمَرَضًا مِنَ الأَمْراضِ — طَلَبْنا لَكَ الأَطِبّاءَ وَالدَّواءَ ، وَبَذَلْنا في سَبيلِ شِفائِكَ كُلَّ ما نَسْتَطيعُ مِنْ جَهْدٍ وَمالٍ . »

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « أو قَدْ فَرَغْتَ ؟ »

قالَ عُتْبَةُ : « نَعَمْ ، يا بْنَ أخي . »

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « اِسْمَعْ مِنّي . »

ثُمَّ تَلا عَلَيْهِ الرَّسولُ ﷺ آياتٍ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ ، مِنْ أوَّلِ سورَةِ فُصِّلَتْ ، حَتّى بَلَغَ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ .. فَإنْ أعْرَضوا فَقُلْ أنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمودَ . ﴾ فانْتَفَضَ عُتْبَةُ مَذْعوراً ، وَنَهَضَ واقِفاً، وَ وَضَعَ يَدَهُ عَلى فَمِ الرَّسولِ ﷺ وَقالَ : « ناشَدْتُكَ بِاللهِ وَبِالرَّحِمِ لَتَسْكُتَنَّ ! »

وَعادَ عُتْبَةُ إلى مَجْلِسِ قَوْمِهِ مُصْفَرَّ الوَجْهِ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ وَالرُّعْبِ ، وَقالَ لَهُمْ : « يا قَوْمُ ، لَقَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ كَلاماً ما سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ ، إنَّهُ لَيْسَ بِالشِّعْرِ ، وَلا بِالسِّحْرِ، وَإنَّ له لَشأناً عَظيماً ! يا قَوْمُ ، دَعوا محمداً وَشأنَهُ، فَإنْ حارَبَتْهُ العَرَبُ وَتَمَكَّنَتْ مِنْهُ كَفَتْكُمْ أمْرَهُ ، وَإنِ انْتَصَرَ عَلَيْها ، وَظَهَرَ أمْرُهُ – كانَ عِزُّهُ عِزّاً لَكُمْ . »

فَضاقَ بِهِ قَوْمُهُ ، وَقالوا لَهُ : « لَقَدْ سَحَرَكَ مُحَمَّدٌ ، يا عُتْبَةُ ! »

وَلكِنَّ قُرَيْشاً لَمْ تَيْأسْ ، وَلَمْ يَتَمَلَّكْها القُنوطُ ؛ فَهِيَ تَرى أنَّها تَعْرِفُ اللهَ وَلا تُنْكِرُهُ ، وَتَذْكُرُ أنَّهُ خالِقُ السَّمواتِ وَالأرْضِ ، وَأنَّها عَلى دينِ إبْراهيمَ الخَليلِ ، وَأنَّها تَعْبُدُ هَذِهِ الآلِهَةَ لِتُقَرِّبَها إلى اللهِ ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ يَقولُ إنَّهُ عَلى دينِ إبْراهيمَ – فَلِماذا تَتْرُكُ دينَها وَتَتَبِعُهُ ؟ إنَّها لَيْسَتْ في حاجَةٍ إلَيْهِ ! وَإنَّ هذا يُقَرِّبُ بَيْنَها وَبَيْنَهُ . فَهُوَ – كَما يَقولُ – عَلى دينِ إبْراهيمَ ، وَهِيَ عَلى دينِ إبْراهيمَ .

هَكَذا فَكَّرَ جَماعَةٌ مِنْ شُيوخِ قُرَيْشٍ ، فيهِمُ الوَليدُ بْنُ المُغيرَةِ ، وَلَمْ يَجِدوا بَأساً في أنْ يَذْهَبوا إلى مُحَمَّدٍ ﷺ مَرَّةً أخْرى لِيُفاوِضوهُ ، وَلِيَعْرِضوا عَلَيْهِ خُطَّةً وَسَطاً . وَشاهَدوا مُحَمَّداً ﷺ يَطوفُ بِالكَعْبَةِ ، فَتَعَرَّضوا لَهُ وَقالوا :

« يا مُحَمَّدُ ، أنْتَ مِنّا وَنَحْنُ مِنْكَ . إنَّنا نَدْعوكَ إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكَ . »

سَألَهُمُ الرَّسولُ ﷺ : « ما هِيَ ؟ »

قالوا : « نَعْبُدُ إلهَكَ الَّذي تَعْبُدُهُ سَنَةً ، وَتَعْبُدُ أنْتَ آلِهَتَنا

سَنَةً ، فَإِنْ كانَ الَّذي تَعْبُدُهُ خيرًا أخَذْنا نَصيبَنا مِنْهُ ، وَإِنْ كانَ الَّذي نَعْبُدُهُ خَيرًا أخَذْتَ حَظَّكَ مِنْهُ ، وَلا تَعيبُ آلِهَتَنا ، وَلا تَذْكُرُها بِسوءٍ ، وَلَكَ أَنْ تَشْتَرِطَ عَلَيْنا ما تُريدُ .»

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « مَعاذَ اللهِ أَنْ أُشْرِكَ بِرَبِّي شَيْئًا !»

ثُمَّ نَزَلَ الرّوحُ الأمينُ جِبْريلُ (عَلَيْهِ السَّلامُ) عَلى قَلْبِ الرَّسولِ الكَريمِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالجَوابِ الحاسِمِ مِنْ عِنْدِ اللهِ:

﴿ قُلْ يَاأَيُّها الكافِرونَ . لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدونَ . وَلا أَنْتُمْ عابِدونَ ما أَعْبُدُ . وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ . وَلا أَنْتُمْ عابِدونَ ما أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ .﴾

لَقَدْ كانَتْ قُرَيْشٌ تَطْمَعُ في مُهادَنَةِ الرَّسولِ ﷺ عَلى حِسابِ الدِّينِ الَّذي أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – حَسَمَ هذِهِ القَضِيَّةَ ، وَ نَزَلَتْ هذِهِ السّورَةُ الَّتي بَيَّنَتْ لَهُمْ أَنَّ طَريقَهُمْ وَعِبادَتَهُمْ وَآلِهَتَهُمْ لَيْسَتْ مِنَ الدِّينِ الصَّحيحِ في شَيْءٍ ، وَجابَهَتْهُمْ (واجَهَتْهُمْ بِشِدَّةٍ) بِأَنَّهُمْ

الكافِرونَ ، وَأَخْبَرَتْ بِأَنَّ هَؤُلاءِ الشُّيوخَ الَّذينَ كَلَّموا رَسولَ اللهِ ﷺ وَفاوَضوهُ سَيَموتونَ عَلى الكُفْرِ ، وَلَنْ يُسْلِمَ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

الجَوْلَةُ الثّانِيَةُ : مَعَ أبي طالِبٍ

فَشِلَتْ مُفاوَضاتُ قُرَيْشٍ مَعَ الرَّسولِ ﷺ فَلَجَئُوا إلى التَّفاوُضِ مَعَ عَمِّهِ أبي طالِبٍ ، وَهُوَ الَّذي يَحْميهِ ، وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ إيذائِهِ وَالاعْتِداءِ عَلَيْهِ .

ذَهَبَ شُيوخُ قُرَيْشٍ إلى « أبي طالِبٍ » في بَيْتِهِ ، وَقالوا لَهُ : « يا أبا طالِبٍ ، أنْتَ مِنّا في مَنْزِلَةٍ رَفيعَةٍ ، وَمَكانَةٍ عالِيَةٍ ، وَنَحْنُ لا نُريدُ أنْ نَقْطَعَ أمْرًا بِغَيْرِ مَشورَتِكَ ، وَلا أنْ نُقْدِمَ عَلى عَمَلٍ دونَ أنْ نَأخُذَ رَأْيَكَ . »

قالَ أبو طالِبٍ : « حَسَنٌ ما صَنَعْتُمْ ، وَشُكْرًا لَكُمْ عَلى حُسْنِ ظَنِّكُمْ . »

قالَ الشُّيوخُ : « تَعْرِفُ ، يا أبا طالِبٍ ، ما صَنَعَهُ ابْنُ أخيكَ مُحَمَّدٌ بِنا : إنَّهُ يَعيبُ آلِهَتَنا الَّتي هِيَ آلِهَتُكَ ، وَيُسَفِّهُ أحْلامَنا وَعُقولَنا . وَقَدْ عَرَضْنا عَلَيْهِ أنْ نَجْمَعَ لَهُ مِنَ المالِ ما يُريدُ ؛ حَتّى يَكونَ أكْثَرَنا مالاً ، وَأوْفَرَنا ثَرْوَةً ، إنْ كانَ يُريدُ بِهَذا الَّذي جاءَ بِهِ المالَ . وَإنْ كانَ يُريدُ السُّلْطانَ

وَالجاهَ سَوَّدْناهُ عَلَيْنا . وَإنْ كانَ بِهِ داءٌ وَمَرَضٌ طَلَبْنا لَهُ الأطِبّاءَ وَالدَّواءَ . ثُمَّ عَرَضْنا عَلَيْهِ خُطَّةً وَسَطًا ، هِيَ : أنْ نَعْبُدَ إلَهَهُ سَنَةً ، وَيَعْبُدَ آلِهَتَنا سَنَةً. وَلَكِنَّهُ رَفَضَ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَأبى إلا المُضِيَّ فيما يَدْعو إلَيْهِ مِنْ عِبادَةِ اللهِ الأحَدِ ، الفَرْدِ الصَّمَدِ . فَيا أبا طالِبٍ ، امْنَعِ ابْنَ أخيكَ عَنّا . »

رَدَّهُمْ أبو طالِبٍ رَدًّا رَفيقًا ، وَ وَعَدَهُمْ أنْ يُكَلِّمَ ابْنَ أخيهِ مُحَمَّدًا .

لاحَظَتْ قُرَيْشٌ أنَّ الوَقْتَ يَمْضي ، وَمُحَمَّدٌ يَمْضي في دَعْوَتِهِ إلى رَبِّهِ ، لَمْ يَتَوَقَّفْ عَنْها ، وَلَمْ يُغَيِّرْ مِنْ سُلوكِهِ ، فَماذا صَنَعَ أبو طالِبٍ مَعَهُ ؟

ذَهَبَ الشُّيوخُ إلى أبي طالِبٍ مَرَّةً ثانِيَةً ، وَقالوا لَهُ : « يا أبا طالِبٍ ، لَقَدْ كَلَّمْناكَ في أمْرِ ابْنِ أخيكَ ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَمْنَعْهُ مِمّا هُوَ فيهِ ، وَإنّا نَراهُ قَدْ أفْسَدَ عَلَيْنا عَبيدَنا ، وَفَتَنَ كَثيرًا مِنَ الأحْرارِ مِنْ قَوْمِنا ، وَإنّا نُناشِدُكَ اللهَ وَالرَّحِمَ أنْ تَرُدَّهُ عَمّا هُوَ فيهِ ؛ حَتّى لا تَسوءَ العَلاقَةُ بَيْنَنا

وَبَيْنَكَ ، وَنُحارِبَكَ وَنُحارِبَهُ حَتّى يَهْلِكَ أَحَدُ الفَرِيقَيْنِ !»

شَعَرَ أبو طالِبٍ أنَّ في حَدِيثِ الشُّيوخِ شَيْئًا مِنَ الوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ، وَكانَتْ قَدْ تَقَدَّمَتْ بِهِ السِّنُّ ، فَخَشِيَ على ابْنِ أخيهِ بَطْشَ قُرَيْشٍ ، فَدَعاهُ إِلَيْهِ وَقالَ لَهُ : « يا بْنَ أخي ، إنَّ قَوْمَكَ كَلَّموني في أمْرِكَ ، فَهَلا رَفَقْتَ بي وَبِنَفْسِكَ ، وَلَمْ تُحَمِّلْني مِنَ الأمْرِ ما لا أُطيقُ ؟»

ظَنَّ الرَّسولُ ﷺ أنَّ عَمَّهُ قَدْ ضَعُفَ عَنْ نُصْرَتِهِ ، وَأنَّهُ سَوْفَ يَخْذُلُهُ في دَعْوَتِهِ ، وَيُسْلِمُهُ إلى قَوْمِهِ ، فَقالَ لَهُ في عَزْمٍ وَثَباتٍ : « يا عَمِّ ، وَاللهِ لَوْ وَضَعوا الشَّمْسَ في يَميني ، والقَمَرَ في يَساري ، على أنْ أتْرُكَ هَذا الأمْرَ حَتّى يُظْهِرَهُ اللهُ أوْ أهْلِكَ دونَهُ – ما تَرَكْتُهُ .»

وَ بَكى رَسولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ قامَ لِيَخْرُجَ ، فَما تَحَرَّكَ إلا قَليلاً حَتّى ناداهُ عَمُّهُ أبو طالِبٍ وَقالَ لَهُ: « يا بْنَ أخي، اِذْهَبْ فَقُلْ ما أحْبَبْتَ ، وَادْعُ إلى رَبِّكَ كَما شِئْتَ ، فَوَاللهِ لَنْ أخْذُلَكَ ، وَلَنْ أُسْلِمَكَ إلى شَيْءٍ تَكْرَهُهُ أبَداً !»

لَمْ يُسْفِرْ تَهْديدُ قُرَيْشٍ لأبي طالِبٍ عَنْ شَيْءٍ جَديدٍ : فَما زالَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَدْعو إلى الإسْلامِ ، وَما زالَ النّاسُ يَدْخُلونَ في دينِهِ أرْسالاً (جَماعاتٍ) ، وما زالَ المُسْلِمونَ يَجْهَرونَ بِصَلاتِهِمْ وَلا يَسْتَخْفونَ .

قالَ شُيوخُ قُرَيْشٍ : « فَلْنَذْهَبْ إلى أبي طالِبٍ مَرَّةً أخْرى ، وَلْنَعْرِضْ عَلَيْهِ عَرْضاً جَديداً لَعَلَّهُ يُوافِقُ عَلَيْهِ .»

مَشى شُيوخُ قُرَيْشٍ إلى أبي طالِبٍ ، وَقالوا لَهُ : « يا أبا طالِبٍ ، لَقَدْ كَلَّمْناكَ في أمْرِ ابْنِ أخيكَ أكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ؛ فَلَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا . وَقَدْ جِئْناكَ اليَوْمَ نَعْرِضُ عَلَيْكَ آخِرَ ما عِنْدَنا ؛ لَعَلَّهُ يُرْضيكَ .»

قالَ أبو طالِبٍ : « هاتوا ما عِنْدَكُمْ .»

قالَ الشُّيوخُ : « يا أبا طالِبٍ ، نَحْنُ لا نُريدُ فِتْنَةً في قُرَيْشٍ ، وَلا نَرْغَبُ في حَرْبٍ بَيْنَ عَشائِرِها ، فَمَكَّةُ آمِنَةٌ سالِمَةٌ مُنْذُ وُجِدَتْ ..»

قاطَعَهُمْ أبو طالِبٍ : « وَلا أنا أُريدُ ذَلِكَ ، وَإنَّنا – آلَ

بَني هاشِمٍ – نَحْرِصُ على سِلْمِ مَكَّةَ وَهُدوئِها كَما تَحْرِصونَ ، أَوْ أَكْثَرَ مِمّا تَحْرِصونَ كَما تَعْلَمونَ .»

قالَ الشُّيوخُ : « إذاً ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَقْبَلَ خُطَّتَنا .»

قالَ أبو طالِبٍ : « وَما هِيَ خُطَّتُكُمْ ؟ اِعْرِضوها عَلَيَّ لأَنْظُرَ فيها .»

قالَ الشُّيوخُ : « هَذا « عِمارَةُ بْنُ الوَليدِ » مِنْ أَعْظَمِ شَبابِ قُرَيْشٍ قُوَّةً ، وَأَرْجَحِهِمْ عَقْلاً ، وَأَشْرَفِهِمْ نَسَباً ، وَأَجْمَلِهِمْ خَلْقاً ..»

قاطَعَهُمْ أبو طالِبٍ : « وَما شَأْني بِعِمارَةَ ؟»

قالَ الشُّيوخُ : « هُوَ لَكَ ، اِتَّخِذْهُ وَلَداً ، وَأَسْلِمْ إِلَيْنا ابْنَ أَخيكَ الَّذي عابَ آلِهَتَنا ، وَسَفَّهَ أَحْلامَنا ، وَفَرَّقَ جَماعَتَنا – أَسْلِمْهُ إِلَيْنا نَقْتُلْهُ ، وَإِنَّما هُوَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ .»

غَضِبَ أبو طالِبٍ غَضَباً شَديداً ، وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ ، ثُمَّ قالَ لَهُمْ بِصَوْتٍ فيهِ نَبْرَةُ التَّحَدّي وَالعُنْفِ : « بِئْسَ ما تَتَحَدَّثونَ بِهِ إِلَيَّ ! آخُذُ ابْنَكُمْ أُطْعِمُهُ وَأَسْقيهِ ، وَأُنَشِّئُهُ وَأُرَبّيهِ لَكُمْ ، وَتَأْخُذونَ ابْني تَقْتُلونَهُ ؟! وَاللهِ ، هَذا لا يَكونُ أَبَداً !»

الحِصارُ

لَمْ تَنْجَحْ مُفاوَضاتُ قُرَيْشٍ مَعَ الرَّسولِ ﷺ ، وَلَمْ تَنْجَحْ – أَيْضاً – مُفاوَضاتُها مَعَ عَمِّهِ أبي طالِبٍ ، وَلَمْ يَنْجَحْ تَهْديدُها لَهُ ، وَلَمْ يَنْجَحْ ما تَصُبُّهُ قُرَيْشٌ على المُسْلِمينَ مِنْ تَعْذيبٍ ، وَ ما تُصيبُهُمْ بِهِ مِنْ إيذاءٍ – لَمْ يَنْجَحْ كُلُّ ذَلِكَ في صَدِّهِمْ عَنِ الإسْلامِ ، بَلْ زادَهُمْ عَزْماً وَتَصْميماً ، وَمَنَحَهُمْ قُوَّةً وَإِصْراراً .

فَكَّرَتْ قُرَيْشٌ في اتِّخاذِ مَوْقِفٍ آخَرَ ، يَكونُ أَشَدَّ وَقْعاً على الرَّسولِ ﷺ وَعَمِّهِ وَعَشيرَتِهِ (بَني هاشِمٍ وَبَني عَبْدِ المُطَّلِب) ، وَيَكونُ دَرْساً لِكُلِّ مَنْ تُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِالدُّخولِ في الإسْلامِ .

اِجْتَمَعَ شُيوخُ قُرَيْشٍ ، وَتَشاوَروا فيما بَيْنَهُمْ ، وَانْتَهَتْ مُناقَشاتُهُمْ إلى اتِّفاقٍ عَلى مُقاطَعَةِ بَني هاشِمٍ وَبَني عَبْدِ

المُطَّلِبِ – عَشيرَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ – وكَتَبوا بِذَلِكَ الاتِّفاقِ صَحيفَةً . وَلِكَيْ يُوَثِّقوا هَذِهِ الصَّحيفَةَ ، وَيَكونَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ مُلْتَزِمًا بِتَنْفيذِ ما جاءَ فيها – عَلَّقوها في جَوْفِ الكَعْبَةِ ، كَما كانوا يَفْعَلونَ في كُلِّ أَمْرٍ ذي بالٍ .

كانَتْ هَذِهِ الصَّحيفَةُ تَقْضي : بِأَنْ لا يَبيعَ أَحَدٌ شَيْئًا إلى بَني هاشِمٍ وَبَني عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَلا يَشْتَرِيَ مِنْهُمْ ، وَأَنْ لا يُزَوِّجَهُمْ أَحَدٌ مِنْ بَناتِهِمْ ، وَأَنْ لا يُخالِطَهُمْ أَحَدٌ بِأَيَّةِ صورَةٍ مِنْ صُوَرِ المُخالَطَةِ ، وَأَنْ لا يُصالِحَهُمْ أَحَدٌ ما داموا يَحْمونَ مُحَمَّدًا وَيَمْنَعونَهُ .

اِنْحازَ بَنو هاشِمٍ وَبَنو عَبْدِ المُطَّلِبِ إلى شِعْبِ أَبي طالِبٍ، وَكانَ ذَلِكَ في السَّنَةِ السّابِعَةِ مِنَ البَعْثَةِ ، وَأَقاموا فيهِ جَميعُهُمْ ، مَنْ كانَ مِنْهُمْ مُسْلِماً وَمَنْ لَمْ يَكُنْ ، لَمْ يَشِذَّ مِنْهُمْ إلا أبو لَهَبٍ – فَقَدْ وَقَفَ في صَفِّ قُرَيْشٍ ضِدَّ أَهْلِهِ وَعَشيرَتِهِ .

لَبِثَ بَنو هاشِمٍ وَبَنو عَبْدِ المُطَّلِبِ سَنَتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا

مَحْصورينَ في الشِّعْبِ ، وَأَحْكَمَتْ قُرَيْشٌ عَلَيْهِمُ الحِصارَ ، وَضَيَّقَتْ عَلَيْهِمُ الخُنّاقَ ، فَكانَتْ تَأْبى أَنْ تَبيعَ شَيْئًا لِبَعْضِ المُسْلِمينَ ؛ خَشْيَةَ أَنْ يُسَرِّبَهُ إلى المَحْصورينَ . وَضاقَتْ عَلى المَحْصورينَ الأَرْضُ بِما رَحُبَتْ ، وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ؛ فَقَدْ نَفِدَ ما كانَ عِنْدَهُمْ مِنْ طَعامٍ وَشَرابٍ ، حَتّى أَكَلوا أَوْراقَ الشَّجَرِ ، وَكانَ بَعْضُهُمْ يَلوكُ في فَمِهِ ما تَعْثُرُ عَلَيْهِ يَدُهُ وَلَوْ كانَ حَشَرَةً . وَاشْتَدَّ صُراخُ الأَطْفالِ وَعَويلُهُمْ ، وَهُزِلَتْ أَجْسامُهُمْ، وَاصْفَرَّتْ وُجوهُهُمْ، وَ وَقَفَ الآباءُ وَالأُمَّهاتُ حَيارى أَمامَ أَطْفالِهِمْ ، لا يَسْتَطيعونَ أَنْ يَصْنَعوا لَهُمْ شَيْئًا !

وَلَوْلا بَقِيَّةٌ مِنْ شَهامَةٍ ، وَفَضْلٌ مِنْ مُروءَةٍ ، عِنْدَ بَعْضِ العُقَلاءِ مِنْ قُرَيْشٍ – لَهَلَكَ المَحْصورونَ في الشِّعْبِ .

كانَ بَعْضُ هَؤُلاءِ العُقَلاءِ يَذْهَبُ بِالطَّعامِ لَيْلاً إلى المُحاصَرينَ في الشِّعْبِ ، فَيَضَعُهُ عَلى بابِهِ ، وَيَنْصَرِفُ .

وَفي مَرَّةٍ كانَ أَبو جَهْلٍ يَتَأَكَّدُ مِنْ إِحْكامِ الحِصارِ

وَسَيْطَرَتِهِ ، فَإِذا بِهِ يَلْقى واحِداً مِنْ هَؤُلاءِ العُقَلاءِ أَصْحابِ المُروءَةِ وَالشَّهامَةِ ، هُوَ « حَكيمُ بْنُ حَزام » وَمَعَهُ غُلامٌ يَحْمِلُ قَمْحاً ، يُريدُ أَنْ يَذْهَبَ بِهِ إِلى عَمَّتِهِ السَّيِّدَةِ خَديجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِد زَوْجَةِ الرَّسولِ ﷺ ، وَكانَتْ مَعَهُ مُحاصَرَةً في الشِّعْبِ ، فَقالَ أَبو جَهْلٍ لِحَكيمٍ : « أَ تُريدُ أَنْ تَذْهَبَ بِهَذا الطَّعامِ إِلى الشِّعْبِ ؟ وَاللهِ ، لا تَبْرَحَنَّ مِنْ هُنا أَنْتَ وَما مَعَكَ مِنْ طَعامٍ حَتّى أَفْضَحَكَ في مَكَّةَ كُلِّها ! »

وَبَيْنَما هُما في شَدٍّ وَجَذْبٍ ، وَأَخْذٍ وَرَدٍّ – وَصَلَ إِلَيْهِما رَجُلٌ اسْمُهُ « أَبو البُخْتَري » ، وَكانَ مِنْ عُقَلاءِ قُرَيْشٍ ، فَقالَ لأَبي جَهْلٍ : « وَيْحَكَ ! ماذا تُريدُ مِنْهُ ؟ »

رَدَّ أَبو جَهْلٍ : « إِنَّهُ يُريدُ أَنْ يَذْهَبَ بِهَذا الطَّعامِ إِلى شِعْبِ أَبي طالِبٍ . »

قالَ أَبو البُخْتُري : « وَماذا في ذَلِكَ ؟ إِنَّهُ طَعامٌ كانَ لِعَمَّتِهِ خَديجَةَ عِنْدَهُ ، فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ تَطْلُبُ طَعامَها ، فَلا بَأْسَ عَلَيْهِ في أَنْ يَرُدَّهُ إِلَيْها . اُتْرُكِ الرَّجُلَ ، وَخَلِّ سَبيلَهُ ! »

وَكانَ أَكْثَرَ هَؤُلاءِ العُقَلاءِ بِرّاً بِبَني هاشِمٍ ، وَأَقْواهُمْ صِلَةً لَهُمْ ، وَأَحْسَنَهُمْ بَلاءً في هَذا المَوْقِفِ – هُوَ هِشامُ ابْنُ عَمْرٍو ، كانَ يَأْتي بِالجَمَلِ قَدْ حَمَّلَهُ بِالطَّعامِ أَوْ بِالقَمْحِ ، ثُمَّ يَذْهَبُ بِهِ لَيْلاً حَتّى يَبْلُغَ بابَ الشِّعْبِ ، فَيُلْقي مِقْوَدَهُ فَوقَ عُنُقِهِ ، وَيَضْرِبُهُ عَلى جَنْبِهِ ، فَيَنْطَلِقُ مُسْرِعاً إِلى داخِلِ الشِّعْبِ ، فَيَتَلَقّاهُ المُحاصَرونَ ، يَأْخُذونَ ما عَلَيْهِ مِنْ طَعامٍ أَوْ قَمْحٍ ، ثُمَّ يَذْبَحونَهُ وَيَأْكُلونَ لَحْمَهُ .

وَبَدَأَتْ صُدورُ هَؤُلاءِ العُقَلاءِ – أَصْحابِ المُروءَةِ وَالشَّهامَةِ – تَضيقُ بِالحِصارِ ، وَتُشْفِقُ مِمّا يُلاقيهِ قَوْمٌ مِنْهُمْ ؛ فَتَحَدَّثَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ في شَأْنِ هَذِهِ الصَّحيفَةِ المُعَلَّقَةِ في جَوْفِ الكَعْبَةِ ، الَّتي تَقْضي بِمُقاطَعَةِ بَني هاشِمٍ وَبَني عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ ، حَتّى يَهْلِكوا . إِنَّها جَريمَةٌ في حَقِّ شَهامَتِهِمْ ، وَشَهادَةٌ عَلى ضَلالِ عُقولِهِمْ ، وَزَيْغِ تَفْكيرِهِمْ . لا بُدَّ مِنْ نَقْضِها وَالتَّخَلُّصِ مِنْها ، وَفَكِّ الحِصارِ المَضْروبِ حَوْلَ الشِّعْبِ .

مَشى هِشامُ بْنُ عَمْرٍو هَذا إِلى عاقِلٍ أَريبٍ آخَرَ ، هُوَ

زُهَيْرُ بْنُ أبي أُمَيَّةَ ، وَقالَ لَهُ : « أَلَيْسَتْ أُمُّكَ عاتِكَةَ بِنْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ ؟»

أجابَ زُهَيْرٌ : « بلى ! إنَّها أُمِّي .»

قالَ هِشامٌ : « إذاً فأخْوالُكَ بنو عَبْدِ المُطَّلِبِ !»

أجابَ زُهَيْرٌ : « نَعَمْ ، وَهَلْ في ذَلِكَ شَكٌّ ؟»

قالَ هِشامٌ : « وَكَيْفَ تَرْضى لِنَفْسِكَ أنْ تَحْيا في بُحْبوحَةٍ مِنَ العَيْشِ ، تأكُلُ ما تَشاءُ مِنْ طَيِّبِ الطَّعامِ وَلَذيذِهِ ، وَتَلْبَسُ ما يَروقُكَ (يُعْجِبُكَ) مِنَ الثِّيابِ ، وَتَتْرُكُ أخْوالَكَ مُحاصَرينَ ، لا يَجِدونَ ما يَطْعَمونَ ؟»

صَمَتَ هِشامٌ قَليلاً ، لِيَرى مَدى تأثيرِ قَوْلِهِ في زُهَيْرٍ ، ثُمَّ أكْمَلَ حَديثَهُ فَقالَ : « أرَأيْتَ ، يا زُهَيْرُ ، لَوْ أنَّ بَني عَبْدِ المُطَّلِبِ هؤلاءِ أخْوالُ أبي الحَكَمِ (أبي جَهْلٍ) ، وَدَعَوْتَهُ إلى مُحاصَرَتِهِمْ وَمُقاطَعَتِهِمْ – أكانَ يُجيبُكَ إلى ما دَعَوْتَ ؟»

لَمْ يَرُدَّ زُهَيْرٌ ، وَإنَّما أخَذَ يُفَكِّرُ فيما يَسْتَطيعُ أنْ يَصْنَعَهُ

لأخْوالِهِ ، وَكَيْفَ يَسْتَطيعُ أنْ يَفُكَّ حِصارَهُمْ ، وَيَعْمَلَ عَلى نَقْضِ هَذِهِ الصَّحيفَةِ الجائِرَةِ الَّتي كادَتْ تُهْلِكُهُمْ .

وَقَطَعَ عَلَيْهِ هِشامٌ صَمْتَهُ وَتَفْكيرَهُ ، وَقالَ مُكْمِلاً حَديثَهُ : « إنَّ أبا الحَكَمِ ما كانَ لِيُجيبَكَ أبَداً إلى مُحاصَرَةِ أخْوالِهِ وَمُقاطَعَتِهِمْ .»

قالَ زُهَيْرٌ : « وَماذا تُريدُني أنْ أصْنَعَ ، يا هِشامُ ؟»

قالَ هِشامٌ : « أُريدُكَ أنْ تَنْقُضَ هَذِهِ الصَّحيفَةَ الجائِرَةَ ، وَتَفُكَّ الحِصارَ عَنْ أخْوالِكَ .»

قالَ زُهَيْرٌ : « إنَّما أنا رَجُلٌ واحِدٌ ، لا أسْتَطيعُ شَيْئاً .»

قالَ هِشامٌ : « نَحْنُ مَعَكَ . إنَّنا أرْبَعَةُ رِجالٍ مِنْ سادَةِ قُرَيْشٍ وَأشْرافِها ، سَنَلْتَقي هَذِهِ اللَّيْلَةَ عِنْدَ الحَجونِ (مَوْضِعٌ بِمَكَّةَ) ؛ لِنَتَعاهَدَ عَلى نَقْضِ هَذِهِ الصَّحيفَةِ الجائِرَةِ .»

قالَ زُهَيْرٌ : « نِعْمَ ما تَسْعى فيهِ ، يا هِشامُ ! أنا مَعَكُمْ .»

حَلَّ المَساءُ ، وَأرْخى اللَّيْلُ سُدولَهُ عَلى أرْجاءِ مَكَّةَ ، وَخَرَجَ هؤلاءِ الرِّجالُ الخَمْسَةُ تَحْتَ سِتارِ الظَّلامِ ، يَبْغونَ

المكانَ الَّذي تواعَدوا على اللِّقاءِ فيهِ .

تَشاوَرَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ ، وَتَعاهَدوا على القِيامِ بِنَقْضِ الصَّحيفَةِ الجائِرَةِ ، واتَّفَقوا عَلى أَنْ يَبْدَأَ الحَديثَ في هَذا الأَمْرِ « زُهَيْرُ بْنُ أبي أُمَيَّةَ » .

أَصْبَحَ الصَّباحُ ، وَغَدَتْ قُرَيْشٌ على أَنْدِيَتِها في المَسْجِدِ الحَرامِ ، وَخَرَجَ أبو طالِبٍ وَمَعَهُ بَعْضُ شُيوخِ بَني هاشِمٍ مِنَ الشِّعْبِ، يَتَأَهَّبونَ لِلذَّهابِ إلى قُرَيْشٍ في المَسْجِدِ ، بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَ الرَّسولُ ﷺ عَمَّهُ بِأَنَّ الأَرَضَةَ (حَشَرَةٌ كالنَّمْلَةِ) قَدْ أَكَلَتْ كُلَّ ما في الصَّحيفَةِ مِنْ جَوْرٍ وظُلْمٍ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْها إلا « اسْمُ اللهِ » ، وَفي اللَّحْظَةِ نَفْسِها وَصَلَ زُهَيْرٌ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ جَديدَةٌ ، فَطافَ بِالكَعْبَةِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلى قُرَيْشٍ في أَنْدِيَتِها ثُمَّ قالَ: « يا أَهْلَ مَكَّةَ ، يا سادَةَ قُرَيْشٍ ، أَ تَرْضَوْنَ لأَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلوا طَيِّبَ الطَّعامِ ، وَتَشْرَبوا لَذيذَ الشَّرابِ ، وَبَنو هاشِمٍ وَبَنو عَبْدِ المُطَّلِبِ يَكادونَ يَهْلِكونَ ؟ وَاللهِ ، لا أَقْعُدُ حَتّى تُشَقَّ هَذِهِ الصَّحيفَةُ الظّالِمَةُ !»

قالَ أبو جَهْلٍ : « كَذَبْتَ ، يا زُهَيْرُ ! وَاللهِ ، لا تُشَقُّ

هَذِهِ الصَّحيفَةُ أَبَداً !»

قالَ أَحَدُ العُقَلاءِ المُتَعاهِدينَ ، وَكانَ يَجْلِسُ في ناحِيَةٍ أُخْرى مِنَ المَسْجِدِ : « بَلْ أَنْتَ الَّذي كَذَبْتَ . وَاللهِ ، ما رَضينا بِكِتابَتِها يَوْمَ كُتِبَتْ .»

وَقالَ مِثْلَ هَذا القَوْلِ كُلُّ واحِدٍ مِنَ المُتَعاهِدينَ عَلى نَقْضِ الصَّحيفَةِ . وَكانَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ قَدْ جَلَسَ في ناحِيَةٍ مِنَ المَسْجِدِ ، بَعيداً عَنْ صاحِبِهِ .

فَقالَ أبو جَهْلٍ : « هَذا ، وَاللهِ ، أَمْرٌ قَدْ دُبِّرَ بِلَيْلٍ . لَقَدْ تَشاوَرْتُمْ فيهِ في غَيْرِ هَذا المَكانِ .»

وَأَرادَ أبو طالِبٍ أَنْ يَحْسِمَ المَوْقِفَ ، فَقالَ : « يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لَقَدْ أَخْبَرَني ابْنُ أَخي أَنَّ الأَرَضَةَ قَدْ أَكَلَتِ الصَّحيفَةَ ؛ لِما فيها مِنْ جَوْرٍ وَظُلْمٍ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْها شَيْءٌ إلا «« اسْمُ اللهِ »» . فانْظُروا في صَحيفَتِكُمْ : فَإِنْ كانَتْ كَما ذَكَرَ ابْنُ أَخي فَفُكّوا عَنّا حِصارَكُمْ . وَإِنْ كانَتْ سالِمَةً لَمْ يُصِبْها سوءٌ سَلَّمْتُ لَكُمُ ابْنَ أَخي لِتَقْتُلوهُ !»

قالَ بَعْضُ شيوخِ قُرَيْشٍ : « لَقَدْ أنْصفَكُمْ أبو طالِبٍ . »

وَذَهَبَ أحَدُهُمْ مُسْرِعًا إلى الصَّحيفَةِ ، فَإذا هِيَ كَما أخْبَرَ الرَّسولُ ﷺ ، قَدْ أكَلَتْها الأَرَضَةُ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْها إلا « اسْمُ اللهِ » .

قالَ بَعْضُ الحاقِدينَ مِنْ قُرَيْشٍ : « هَذا ، وَاللهِ ، سِحْرُ مُحَمَّدٍ ! »

وَانْطَلَقَ جَماعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، يَتَقَدَّمُهُم الرِّجالُ الخَمْسَةُ ، قَدْ لَبِسوا سِلاحَهُمْ - انْطَلَقوا إلى الشِّعْبِ لِيَرْفَعوا الحِصارَ عَنْ بَني هاشِمٍ وَبَني عَبْدِ المُطَّلِبِ .

وَدَخَلَ أبو طالِبٍ الشِّعْبَ وَهُوَ يَقولُ : « لَقَدْ مُزِّقَتِ الصَّحيفَةُ ! »

وَبِذَلِكَ انْزاحَتِ الغُمَّةُ عَنْ بَني هاشِمٍ وَبَني عَبْدِ المُطَّلِبِ ، وَخَرَجوا مِنَ الشِّعْبِ في حِمايَةِ زُهَيْرٍ وَالَّذينَ مَعَهُ ، وَالرَّسولُ ﷺ وَالمُسْلِمونَ مَعَهُ أقْوى عَزْمًا ، وَأشَدُّ إصْرارًا عَلى الدَّعْوَةِ إلى الإسْلامِ . وَسَجَدوا للهِ رَبِّ العالَمينَ شاكِرينَ !

عامُ الحُزْنِ

ماتَ أبو طالِبٍ ، الَّذي سَخَّرَهُ اللهُ - عَزَّ وَ جَلَّ - لِيَكونَ سَنَدًا لِرَسولِهِ ﷺ ، وحامِيًا لَهُ مِنْ إيذاءِ قُرَيْشٍ ، كَيْ يُبَلِّغَ دَعْوَةَ رَبِّهِ ، وَذَلِكَ قَبْلَ الهِجْرَةِ إلى المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ بِثَلاثِ سِنينَ ؛ أيْ في العامِ العاشِرِ مِنَ البَعْثَةِ .

وَبَعْدَ مَوْتِهِ بِقَليلٍ ماتَتِ السَّيِّدَةُ خَديجَةُ - رَضِيَ اللهُ عَنْها - زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ الَّتي كانَتْ سَكَنًا لَهُ ، تُعينُهُ عَلى تَبْليغِ الرِّسالَةِ ، وَتَمْسَحُ عَنْهُ آلامَهُ ، وَتُخَفِّفُ عَنْهُ مَتاعِبَهُ ، وَيَجِدُ عِنْدَها الرّاحَةَ بَعْدَ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ ، وَالطُّمَأنينَةَ بَعْدَ القَلَقِ . وَكانَتْ تُواسيهِ وَتُعَزّيهِ بِعَطْفِها حَتّى تَصْفُوَ نَفْسُهُ ، وَيَسْتَعيدَ عَزْمَهُ ، وَتَشْتَدَّ روحُ الكِفاحِ فيهِ .

ماتَ أبو طالِبٍ ، وَماتَتْ خَديجَةُ في عامٍ واحِدٍ ؛ فَحَزِنَ الرَّسولُ ﷺ لِفَقْدِهِما ، وَتَألَّمَ لِفِراقِهِما ، وَحَزِنَ المُسْلِمونَ لِحُزْنِ الرَّسولِ ﷺ .

وَبِمَوْتِ أبي طالِبٍ وَخَديجَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْها – خَلَتْ مَكَّةُ لِلسُّفَهاءِ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَخَذَ أبو جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ يَسْرَحونَ فيها وَيَمْرَحونَ ، وَيُؤْذونَ مِنَ المُسْلِمينَ أَشْخاصًا لَمْ يكونوا يَسْتَطيعونَ أَنْ يَمَسّوهُمْ بِأَذًى .

وَنالَ الأذى رَسولَ اللهِ ﷺ ، حَتّى إِنَّ بَعْضَ جيرانِهِ وَفيهِمْ أبو جَهْلٍ رَأَوْهُ يَهُمُّ بِالخُروجِ مِنْ دارِهِ ، فَما كادَ يَبْلُغُ عَتَبَتَها حَتّى قَذَفوهُ بِالحِجارَةِ ، فَتَقَهْقَرَ يَحْتَمي بِجِدارٍ في بَيْتِهِ وَلَمْ يَسْتَطِعِ الخُروجَ ، وَالحِجارَةُ تَهْطِلُ عَلَيْهِ كالمَطَرِ المِدْرارِ ، كَما أَنَّ أَحَدَ السُّفَهاءِ اعْتَرَضَ طَريقَهُ وَنَثَرَ على رَأْسِهِ الشَّريفِ التُّرابَ . وَدَخَلَ الرَّسولُ ﷺ بَيْتَهُ وَالتُّرابُ على رَأْسِهِ ، فَقامَتْ إِلَيْهِ إِحْدى بَناتِهِ تَنْفُضُ عَنْهُ التُّرابَ وَتُزيلُهُ ، وَهِيَ تَبْكي ، وَالرَّسولُ ﷺ يَقولُ لَها:

« لا تَبْكي ، يا بُنَيَّةُ ؛ فَإِنَّ اللهَ مانِعٌ أَباكِ . »

وَكانَ ﷺ يَقولُ في أَثْناءِ ذَلِكَ : « ما نالَتْ مِنّي قُرَيْشٌ شَيْئًا أَكْرَهُهُ حَتّى ماتَ أبو طالِبٍ ! »

باتَ الرَّسولُ ﷺ لَيْلَتَهُ مَهْمومًا مَحْزونًا ، يَدْعو رَبَّهُ

وَيُناجيهِ ، وَيَشْكو إِلَيْهِ هَوانَهُ على النّاسِ ؛ فَالخُطوبُ تُحيطُ بِهِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وَالكُفّارُ يَأْخُذونَ عَلَيْهِ كُلَّ طَريقٍ ، وَيَسُدّونَ أَمامَهُ كُلَّ سَبيلٍ ، وَيَتَرَبَّصونَ بِهِ لِيُؤْذوهُ ، وَلَيْسَ في مَكَّةَ عَمُّهُ أبو طالِبٍ الَّذي كانَ يَحْميهِ وَيَمْنَعُهُ ؛ كَيْ يُبَلِّغَ دَعْوَةَ رَبِّهِ ، وَلَيْسَ في الدّارِ خَديجَةُ حاضِنَةُ الإِسْلامِ الَّتي كانَ يَبُثُّها شَكْواهُ ، فَتُواسيهِ وَتُعَزّيهِ .

إِنَّ الكُفّارَ يَشْتَدّونَ في الإِنْكارِ عَلَيْهِ ، وَيُلِحّونَ في الإيذاءِ ، وَلَكِنَّهُ ﷺ واثِقٌ مِنْ أَنَّ اللهَ يَعْصِمُهُ مِنْهُمْ ، وَيَحْميهِ ، وَ واثِقٌ مِنْ أَنَّ نَصْرَ اللهِ قَريبٌ .

وَخَرَجَ ﷺ حينَ أَشْرَقَ الصَّباحُ ، وَذَهَبَ إِلى المَسْجِدِ ، وَهُوَ مَحْزونٌ مَهْمومٌ ، فَوَجَدَ اثْنَيْنِ مِنْ أَصْحابِهِ هُما أبو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُما) ، فَمَشى ﷺ إِلَيْهِما ، وَ وَقَعَتْ عَلَيْهِ أَعْيُنُ بَعْضِ ساداتِ قُرَيْشٍ ، الَّذينَ كانوا يَتَرَبَّصونَ بِهِ ، وَيَتَرَصَّدونَ لَهُ ، فَما إِنْ رَأَوْهُ حَتّى قاموا مُسْرِعينَ ، وَأَمْسَكوا بِهِ ، يَتَجاذَبونَهُ ، وَهُمْ يَقولونَ :

« أَنْتَ الَّذي جَعَلْتَ الآلِهَةَ إِلَهًا واحِدًا ! أَنْتَ الَّذي

فَرَّقْتَ بَيْنَنا !»

وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَدْفَعُهُ إلى بَعْضٍ ، فَانْدَفَعَ إِلَيْهِمْ أبو بَكْرٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – يَضْرِبُ هَذا ، وَيَدْفَعُ ذاكَ ، وَيَقُولُ لَهُمْ : « أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ؟»

وَعادَ ﷺ إلى بَيْتِهِ كَما خَرَجَ مِنْهُ – مَهْموماً مَحْزوناً !

الرَّسولُ في الطّائِفِ

ضاقَتْ مَكَّةُ بِالرَّسولِ ﷺ وَاتَّسَعَتْ لِما يُمارِسُهُ أبو جَهْلٍ وَأَعْوانُهُ مِنْ إيذاءٍ وَتَعْذيبٍ . وَحَزِنَ الرَّسولُ ﷺ لأَنَّ قَوْمَهُ يَصُدُّونَهُ عَنِ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ ، وَيَأْبَوْنَ الاسْتِجابَةَ لِلدِّينِ الَّذي يُحْيي قُلوبَهُمْ – فَفَكَّرَ في أَنْ يَلْتَمِسَ النُّصْرَةَ في مَكانٍ آخَرَ ، وَأَنْ يَبْحَثَ عَنْ قَوْمٍ يَسْتَجيبونَ لَهُ ، وَيُعينونَهُ .

وَكانَتِ الطّائِفُ أَوَّلَ بَلَدٍ خَطَرَ بِبالِهِ ﷺ فَفيها الحارِثُ ابْنُ كَلَدَةَ زَوْجُ خالَتِهِ ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ حُكَماءِ العَرَبِ وَأَطِبّائِهِمْ ، وَلَعَلَّ ما عِنْدَهُ مِنْ مَعْرِفَةٍ وَخِبْرَةٍ يُنيرُ بَصيرَتَهُ ، وَيَفْتَحُ قَلْبَهُ ، يَشْرَحُ لِلإِسْلامِ صَدْرَهُ ، وَلا يَكونُ مِثْلَ ابْنِهِ النَّضْرِ الَّذي كانَ مِنْ أَشَدِّ أَعْداءِ الرَّسولِ ﷺ في مَكَّةَ ، وَأَلَدِّ خُصومِهِ .

وَفيها أُمَيَّةُ بْنُ أَبي الصَّلْتِ ، وَهُوَ شاعِرٌ صاحِبُ رَأْيٍ

مُسْتَنِيرٍ ، وَخُلُقٍ قَوِيمٍ ، لا يَشْرَبُ الخَمْرَ ، وَلا يُزاوِلُ أَفْعالَ الجاهِلِيَّةِ ، وَكانَ يَنْتَظِرُ النُّبُوَّةَ ، وَيُبَشِّرُ بِها .

طَمِعَ الرَّسولُ ﷺ في إِسْلامِ هٰؤُلاءِ ، وَفي نُصْرَتِهِمْ لَهُ ، فاصْطَحَبَ مَعَهُ « زَيْدَ بْنَ حارِثَةَ » وَخَرَجَ إِلى الطّائِفِ . وَكانَ ذٰلِكَ في شَهْرِ شَوّالٍ مِنَ السَّنَةِ العاشِرَةِ لِلْبَعْثَةِ .

ذَهَبَ الرَّسولُ ﷺ وَمَعَهُ « زَيْدُ بْنُ حارِثَةَ » إِلى دارِ زَوْجِ خالَتِهِ الحارِثِ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ الإِسْلامَ ، فَلَمْ يَجِدْهُ خَيْراً مِنِ ابْنِهِ النَّضْرِ ، وَراحَ يَتيهُ عَلى الرَّسولِ ﷺ بِما عَرَفَهُ مِنْ أَجْزاءِ الحِكْمَةِ ، وَما عَرَفَهُ مِنْ أَخْبارِ الفُرْسِ وَالرُّومانِ .

وَخَرَجَ الرَّسولُ ﷺ مِنْ بَيْتِ الحارِثِ كَسيرَ الفُؤادِ ، مُطْرِقَ الرَّأْسِ ، فَقَصَدَ دارَ أُمَيَّةَ بْنِ أَبي الصَّلْتِ ، وَدارَ بَيْنَهُما جِدالٌ شَديدٌ . لَقَدْ لَبِسَ أُمَيَّةُ ثِيابَ الرُّهْبانِ ، وَعَكَفَ عَلى قِراءَةِ كُتُبِ الدِّينِ ، وَكانَ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَكونَ النَّبِيَّ المُنْتَظَرَ ؛ وَلِذٰلِكَ حَسَدَ الرَّسولَ ﷺ وَحَقَدَ عَلَيْهِ ؛ فَلَمْ يُؤْمِنْ بِهِ ، وَقالَ : « ما كُنْتُ لأَتَّبِعَ نَبِيّاً مِنْ غَيْرِ ثَقيفٍ ! »

اِشْتَدَّ حُزْنُ الرَّسولِ ﷺ وَأَلَمُهُ مِنْ مَوْقِفِ أُمَيَّةَ ؛ فَهُوَ رَجُلٌ عَرَفَ الكُتُبَ السّابِقَةَ : التَّوْراةَ وَالإِنْجيلَ ، وَيَعْرِفُ أَنَّ مُحَمَّداً ﷺ هُوَ الرَّسولُ الَّذي بَشَّرَتْ بِهِ هٰذِهِ الكُتُبُ ، فَلِماذا يَطْمِسُ الحِقْدُ عَلى بَصيرَتِهِ ، وَيُعْمي قَلْبَهُ ، وَيَخْتِمُ عَلى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ ، فَيَرْفُضُ الإيمانَ ؟

وَلٰكِنَّهُ ﷺ لَمْ يَيْئَسْ ، وَلَمْ يَقْنَطْ ، وَإِنَّما تَوَجَّهَ إِلى سادَةِ ثَقيفٍ وَعُظَمائِها ، وَكانوا ثَلاثَةَ إِخْوَةٍ . فَلَمّا جَلَسَ ﷺ إِلَيْهِمْ ، أَخَذَ يَعْرِضُ عَلَيْهِمُ الإِسْلامَ ، وَيَطْلُبُ مِنْهُمُ الدُّخولَ فيهِ ، وَالقِيامَ مَعَهُ وَنُصْرَتَهُ عَلى مَنْ خالَفَهُ مِنْ قَوْمِهِ – لَمّا عَرَضَ عَلَيْهِمْ ذٰلِكَ أَخَذَتْهُمُ العِزَّةُ بِالإِثْمِ ، وَنَفَخَ في صُدورِهِمُ الكِبْرُ ، وَعَزَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَأْتِيَهُمْ رَجُلٌ مِنْ مَكَّةَ فَيُطيعوهُ . وَقالَ لَهُ أَحَدُهُمْ ساخِراً : « أَلَمْ يَجِدِ اللهُ غَيْرَكَ لِيُرْسِلَهُ ؟! »

ثُمَّ قالوا لَهُ : « اُخْرُجْ مِنْ بَلَدِنا ، لَوْ كانَ في دينِكَ خَيْرٌ ما صَدَّ عَنْهُ أَهْلُكَ ، وَلانْتَفَعَ بِهِ قَوْمُكَ . »

قامَ الرَّسولُ ﷺ مِنْ عِنْدِهِمْ مَحْزوناً مَهْموماً ، وَطَلَبَ

مِنْهُمْ أَنْ يَكْتُموا خَبَرَ زِيارَتِهِ لَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلوا ؛ إِذْ لَمْ يَكَدْ يَبْعُدُ الرَّسولُ ﷺ وَ « زَيْدٌ » كَثيراً عَنْ دارِهِمْ ، حَتّى كانوا قَدْ أَغْرَوْا بِهِ عَبيدَهُمْ وَسُفَهاءَهُمْ فَراحوا يَسُبّونَهُ وَيَصيحونَ في وَجْهِهِ ، وَزَيْدٌ يُحاوِلُ أَنْ يُبْعِدَهُمْ عَنِ الرَّسولِ وَيَفُضَّهُمْ مِنْ حَوْلِهِ – فَلا يَسْتَطيعُ .

وَ ما إِنْ مَضى ﷺ في الطَّريقِ حَتّى وَجَدَ كَثيراً مِنْ سُفَهاءِ ثَقيفٍ قَدْ تَجَمَّعوا ، واصْطَفّوا صَفَّيْنِ ، وَأَخَذوا يُمْطِرونَ قَدَمَيْهِ الشَّريفَتَيْنِ بِالحِجارَةِ ، وَ « زَيْدٌ » يَعْمَلُ عَلى حِمايَتِهِ ، وَيَتَلَقّى الأَحْجارَ دونَهُ ، وَلَكِنَّ الأَحْجارَ تَكْثُرُ وَتَتَزايَدُ فَتُصيبُ الرِّجْلَيْنِ مَعاً .

وَيَنْظُرُ « زَيْدٌ » أَمامَهُ ، فَيَرى الطَّريقَ طَويلَةً ، وَيَرى النّاسَ كَثيرينَ ، وَتَأْخُذُهُ الشَّفَقَةُ عَلى الرَّسولِ ﷺ ، وَيَذوبُ قَلْبُهُ حُبّاً وَحَناناً ، وَتَفيضُ مِنْ عَيْنَيْهِ الدُّموعُ !

وَراحَ الرَّسولُ ﷺ يَقْطَعُ الطَّريقَ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ ، وَالحِجارَةُ تَنْهالُ عَلَيْهِ فَتَدُقُّ قَدَمَيْهِ دَقّاً ، حَتّى اخْتَضَبَتْ نَعْلاهُ مِنْ أَثَرِ الدِّماءِ ، فَقَعَدَ عَلى الأَرْضِ ، وَ زَيْدٌ يَسْتَميتُ في الدِّفاعِ

عَنِ الرَّسولِ وَحِمايَتِهِ حَتّى شُجَّ رَأْسُهُ ، وَيُعاوِنُهُ لِيُقيمَ صُلْبَهُ . وَ خَفَّ إِلَيْهِ السُّفَهاءُ ، وَأَخَذوا بِيَدَيْهِ وَعَضُدَيْهِ ، وَأَقاموهُ لِيَسيرَ في الطَّريقِ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ ، وَلِيَسْتَأْنِفوا رَضْخَهُ بِالحِجارَةِ هُوَ وَصاحِبِهِ. وَكُلَّما اشْتَدَّتِ الحِجارَةُ ، وَأَسْرَعَتْ قَذائِفُها ، تُصيبُ أَقْدامَ الرَّجُلَيْنِ ، ما يَرْفَعُ أَحَدُهُمْ قَدَماً إِلا وَتَنالُ الحِجارَةُ القَدَمَ الأُخْرى . وَكُلَّما رَأى السُّفَهاءُ ذَلِكَ ضَحِكوا وَصَفَّقوا !

إِنَّ طَريقَ الآلامِ لا تَكادُ تَنْتَهي ، وَالرَّسولُ ﷺ يَتَرَنَّحُ مِنْ شِدَّةِ الأَلَمِ ، فَيَقْعُدُ عَلى الأَرْضِ مَرَّةً ثانِيَةً مَبْهورَ الأَنْفاسِ ، وَيَرْتَمي زَيْدٌ عَلَيْهِ يُحاوِلُ حِمايَتَهُ ، وَتَلَقّي الأَحْجارِ دونَهُ ، وَلَكِنَّ السُّفَهاءَ يُسْرِعونَ إِلَيْهِما ، وَيُقيمونَهُما وَيَدْفَعونَهُما لِلسَّيْرِ في الطَّريقِ – طَريقِ الآلامِ – وَيَدُقّونَ أَقْدامَهُما بِالحِجارَةِ دَقّاً عَنيفاً ، وَتَرْتَفِعُ ضَحِكاتُهُمْ مُجَلْجِلَةً في الفَضاءِ !

كانَ طَريقُ الآلامِ يَنْتَهي عِنْدَ بُسْتانٍ يَمْلِكُهُ أَخَوانِ مِنْ قُرَيْشٍ ، هُما : عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنا رَبيعَةَ . وَما إِنْ بَلَغَ الرَّسولُ

ﷺ وصاحِبُهُ زَيْدٌ حائطَ البُسْتانِ – حَتّى سَقَطَ زَيْدٌ على الأرْضِ مِنْ شِدَّةِ الإعْياءِ والإجْهادِ ، في حينَ رَفَعَ الرَّسولُ ﷺ رأسَهُ إلى السَّماءِ ، وبَسَطَ يَدَيْهِ ، وراحَ يُناجي رَبَّهُ ، والدِّماءُ تَسيلُ مِنْ قَدَمَيْهِ ، والعَرَقُ يَسيلُ مِنْ جبينِهِ الشَّريفِ مُمْتَزِجًا بالتُّرابِ، ويَقولُ ﷺ في ضَراعَةٍ وخُشوعٍ : « اللَّهُمَّ إنِّي أشْكو إلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتي ، وقِلَّةَ حيلَتي ، وهَواني على النّاسِ . يا أرْحَمَ الرّاحِمينَ ، أنْتَ رَبُّ المُسْتَضْعَفينَ وأنْتَ رَبِّي . إلى مَنْ تَكِلُني ؟ إلى بَعيدٍ يَتَجَهَّمُني (يَكْرَهُني) أمْ إلى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أمْري ؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلا أبالي .»

جَلَسَ الرَّسولُ ﷺ في ظِلِّ حائطِ البُسْتانِ لِيَسْتَريحَ ، فَجاءَهُ مَلَكُ الجِبالِ، يُخْبِرُهُ أنَّ اللهَ – عَزَّ و جَلَّ – قَدْ أرْسَلَهُ إلَيْهِ ، لِيُطيعَهُ فيما يَأْمُرُهُ بِهِ ، ولَوْ أمَرَهُ أنْ يُطْبِقَ على قَوْمِهِ الجَبَلَيْنِ لَفَعَلَ ، فَيَدُكُّ بِلادَهُمْ دَكًّا ، ويَجْعَلُها أثَرًا بَعْدَ عَيْنٍ ، وعِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ . ولَكِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ كانَ – كَما وَصَفَهُ رَبُّهُ – رَءُوفًا رَحيمًا ، فَرَفَعَ إلى رَبِّهِ أكُفَّ

الضَّراعَةِ ، وَناجاهُ في خُشوعٍ وَابْتِهالٍ : « اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمي فَإنَّهُمْ لا يَعْلَمونَ .»

رَقَّ الرَّجُلانِ : عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابنا رَبيعَةَ ، اللَّذانِ يَمْلِكانِ البُسْتانَ – رَقًّا لِما أصابَ الرَّسولَ ﷺ ، وَعَطَفَ قَلْباهُما عَلَيْهِ ؛ فَهُوَ ابْنُ عَمٍّ لَهُما وَإنْ كانا يُخالِفانِ دينَهُ . فَنادَيا عَبْدًا لَهُما : « يا عَدّاسُ .»

« نَعَمْ .»

قالَ أحَدُهُما : « أتَرى ذَلِكَ الرَّجُلَ الجالِسَ في ظِلِّ الحائطِ ؟»

قالَ عَدّاسٌ : « نَعَمْ ، يا سَيِّدي .»

قالَ الرَّجُلُ : « اذْهَبْ إلَيْهِ بِعُنْقودٍ مِنَ العِنَبِ في هَذا الطَّبَقِ .»

« سَمْعًا وَطاعَةً ، يا مَوْلايَ .»

أسْرَعَ العَبْدُ « عَدّاسٌ » يُنَفِّذُ أمْرَ سَيِّدِهِ ، فَأخَذَ قِطْفًا مِنَ العِنَبِ ، وَ وَضَعَهُ في الطَّبَقِ ، وَذَهَبَ بِهِ إلى حَيْثُ يَجْلِسُ

الرَّجُلُ الَّذي أشارَ إلَيْهِ سَيِّدُهُ .

وَضَعَ الطَّبَقَ أمامَهُ ، وَقالَ لَهُ : « كُلْ ، يا سَيِّدي . »

مَدَّ « زَيْدٌ » يَدَهُ في الطَّبَقِ قَبْلَ الرَّسولِ ﷺ ، وَلَمّا مَدَّ الرَّسولُ يَدَهُ الكَريمَةَ قالَ : « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحيمِ . »

كانَتِ الكَلِمَةُ غَريبَةً عَلى أُذُنِ عَدّاسٍ ؛ فَأَهْلُ هَذِهِ البِلادِ لا يَقولونَ ذَلِكَ ، وَإنَّما يُعَظِّمونَ آلِهَتَهُمْ ، وَيَبْدَءونَ بِاسْمِ اللاتِ وَالعُزّى .

نَظَرَ « عَدّاسٌ » في الوَجْهِ الكَريمِ ثُمَّ قالَ لَهُ : « إنَّ أَهْلَ هَذِهِ البِلادِ لا يَقولونَ هَذا الكَلامَ . »

سَأَلَهُ الرَّسولُ ﷺ : « مِنْ أيِّ البِلادِ أنْتَ ؟ وَما دينُكَ ؟ »

أجابَ عَدّاسٌ : « نَصْرانِيٌّ ، مِنْ « نينَوى ». »

قالَ الرَّسولُ ﷺ : « مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتّى ؟ »

قالَ عَدّاسٌ : « وَما يُدْريكَ بِيُونُسَ بْنِ مَتّى ؟ وَاللهِ ، لَقَدْ خَرَجْتُ مِنْها وَما فيها عَشَرَةٌ يَعْرِفونَ مَتّى . فَمَنْ أَدْراكَ

بِهِ وَأَنْتَ أُمِّيٌّ في بَلَدٍ أُمِّيَّةٍ ؟ »

أجابَ الرَّسولُ ﷺ : « ذاكَ أخي ، كانَ نَبِيًّا ، وَأنا نَبِيٌّ . »

حينَئِذٍ أكَبَّ عَدّاسٌ عَلى الرَّسولِ ﷺ يُقَبِّلُ يَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ ، وَيَمْسَحُ عَنْهُ آثارَ العَرَقِ وَالدِّماءِ ، وَهُوَ يَقولُ : « أنْتَ مُحَمَّدٌ ، النَّبِيُّ الأُمِّيُّ ، الَّذي خَرَجْتُ مِنْ بِلادي بَحْثًا عَنْهُ ، وَسَعْيًا إلَيْهِ . أشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ ، وَأنَّكَ رَسولُ اللهِ إلى العالَمينَ ! »

أشْرَقَ وَجْهُ الرَّسولِ ﷺ وَتَلأْلأَ جَبينُهُ ؛ فَقَدْ دَخَلَ في حَوْزَةِ الإسْلامِ رَجُلٌ .

وَرَأى صاحِبا البُسْتانِ ما يَفْعَلُهُ عَدّاسٌ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَالْتَفَتَ أحَدُهُما إلى أخيهِ ، وَقالَ لَهُ : « لَقَدْ أفْسَدَ مُحَمَّدٌ غُلامَنا ! »

عادَ عَدّاسٌ إلى البُسْتانِ ، وَقَدِ امْتَلأَ قَلْبُهُ بَهْجَةً وَحُبورًا ، يَكادُ يَطيرُ بِجَناحَيْنِ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ ، فَناداهُ الرَّجُلانِ وَقالَ لَهُ أحَدُهُما : « ما هَذا الَّذي صَنَعْتَ بِمُحَمَّدٍ ، يا عَدّاسُ ؟ تُقَبِّلُ رَأْسَهُ وَيَدَيْهِ وَقَدَمَيْهِ ؟ إنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ بِواحِدٍ

مِنّا مِثْلَ ذلِكَ .»

وَقالَ الآخَرُ : « وَيْحَكَ يا عَدّاسُ ! سَجَدْتَ لِمُحَمَّدٍ ؟ حَذارِ أنْ يَفْتِنَكَ عَنْ دينِكَ !»

أضافَ أخوهُ : « يا عَدّاس ، إنَّهُ رَجُلٌ خَدّاعٌ ، قَدْ جاءَ قَوْمَهُ بِما يُخالِفُ دينَ آبائِهِمْ ، وَفَرَّقَ بَيْنَهُمْ . اِحْذَرْ مِنْهُ !»

كانَ عَدّاسٌ يَسْتَمِعُ إلَيْهِما بِإحْدى أذُنَيْهِ ، في حينِ كانَتْ أنْغامُ الإيمانِ تَصْدَحُ في الأذُنِ الأخْرى ، فَتَمْلأُ قَلْبَهُ بَهْجَةً وَسُروراً ، وَتَسْكُبُ في نَفْسِهِ مُتْعَةً وَحُبوراً ، لا يَتَذَوَّقُ حَلاوَتَها إلا المُؤْمِنونَ .

فَلَمّا فَرَغا مِنْ حَديثِهِما وَتَحْذيرِهِما قالَ عَدّاسٌ: « وَاللهِ ، ما في الأرْضِ خَيْرٌ مِنْ هَذا الرَّجُلِ ، لَقَدْ أعْلَمَني بِأمْرٍ لا يَعْلَمُهُ إلا نَبِيٌّ . لَقَدْ آمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُهُ !»

قالَ الرَّجُلانِ: « ذاكَ شَأْنُكَ ، لَكِنْ لا تُهْمِلْ عَمَلَكَ .»

قالَ عَدّاسٌ : « ذاكَ حَقُّكُما عَلَيَّ ، فَلا تَخْشَيا أنْ أفَرِّطَ فيهِ .»

نَهَضَ الرَّسولُ ﷺ مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَقَدْ وَجَدَ في إسْلامِ

عَدّاسٍ بَعْضَ العَزاءِ ، وَلَمَسَ في عُنْقودِ العِنَبِ رَمْزاً جَميلاً : أنَّ اللهَ – عَزَّ وَجَلَّ – سَيُظْهِرُ دينَهُ ، وَسَتَنْتَظِمُ بِلادُهُ كَما تَنْتَظِمُ حَبّاتُ العِنَبِ في العُنْقودِ !

اِتَّخَذَ الرَّسولُ الكَريمُ طَريقَهُ عائِداً إلى مَكَّةَ ، فَلَمّا وَصَلَ إلى مَكانٍ اسْمُهُ « وادي نَخْلَةَ » قَريباً مِنْ مَكَّةَ تَوَقَّفَ هُناكَ أيّاماً .

قالَ زَيْدٌ : « يا رَسولَ اللهِ ، كَيْفَ نَدْخُلُ عَلَيْهِمْ مَكَّةَ ، وَقَدْ أخْرَجوكَ مِنْها ؟»

أجابَهُ الرَّسولُ ﷺ : « إنَّ اللهَ جاعِلٌ مِمّا تَرى فَرَجاً وَمَخْرَجاً . إنَّ اللهَ ناصِرٌ نَبِيَّهُ ، وَمُظْهِرٌ دينَهُ .»

وَأرْسَلَ الرَّسولُ ﷺ إلى المُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ لِيَدْخُلَ مَكَّةَ في جِوارِهِ ، فَأجابَهُ مُطْعِمٌ إلى ما أرادَ .

جَمَعَ المُطْعِمُ عَشيرَتَهُ وَأهْلَهُ ، وَأمَرَهُمْ أنْ يَتَسَلَّحوا بِأسْلِحَتِهِمْ ، وَيَأخُذوا عُدَّتَهُمْ ؛ فَقَدْ أجارَ مُحَمَّداً لِيَدْخُلَ مَكَّةَ .

وَذَهَبَ المُطْعِمُ وَعَشيرَتُهُ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ ، وَشُيوخُ

قُرَيْشٍ وَشَبابُها جالِسونَ في أنْدِيَتِهِمْ ، وَنادى بأعلى صَوْتِهِ : « يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، لَقَدْ أجَرْتُ مُحَمَّداً ، لِيَدْخُلَ مَكَّةَ آمِناً ، فَلا يُؤْذِهِ مِنْكُمْ أحَدٌ . »

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلى أنْدِيَةِ قُرَيْشٍ ، وَضاقَتْ صُدورُ الشُّيوخِ وَالشَّبابِ بِما فَعَلَ المُطْعِمُ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَدْهَشوا لَهُ كَثيراً ؛ فَقَدْ كانَ المُطْعِمُ واحِداً مِنَ الَّذينَ سَعَوْا في نَقْضِ صَحيفَةِ المُقاطَعَةِ ، وَفَكِّ الحِصارِ عَنْ شِعْبِ أبي طالِبٍ .

وَدَخَلَ الرَّسولُ ﷺ مَكَّةَ في جِوارِ المُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ ، فَطافَ بِالكَعْبَةِ ، وَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ ، وَصَلّى رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ خَرَجَ في طَريقِهِ إلى دارِهِ ، وَمُطْعِمٌ وَعَشيرَتُهُ مُطيفونَ بِهِ ، ما يَسْتَطيعُ أحَدٌ مِنْ قُرَيْشٍ أنْ يُؤْذِيَهُ بِكَلِمَةٍ .

وَاسْتَقْبَلَتْهُ ﷺ بَناتُهُ ، فَرِحاتٍ بِعَوْدَتِهِ ، مُسْتَبْشِراتٍ خَيْراً . وَأقْبَلَ أسامَةُ بْنُ زَيْدٍ يُقَبِّلُ الرَّسولَ ﷺ وَيَرْتَمي عَلى صَدْرِهِ ، وَفي صَدْرِ الرَّسولِ ﷺ يَقينٌ لا يَتَزَعْزَعُ ، وَفي قَلْبِهِ إيمانٌ لا يَتَحَوَّلُ : أنَّ اللهَ ناصِرٌ نَبِيَّهُ ، وَمُظْهِرٌ دينَهُ ، وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكونَ .

رياض الإيمان

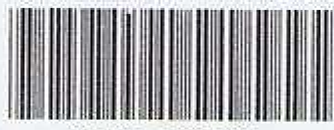
سلسلة تربويّة تثقيفيّة إسلاميّة

رياض الإيمان شذا فواح من حياة الرسول ﷺ وصحابته، يضوع في الآفاق، فيغمر القلوب بعطره، ويحيي النفوس بصدقه؛ فتجد فيه الأسوة التي تفتقدها، والقدوة التي تنشدها؛ فقد كانت حياتهم التطبيق العملي لما أنزله الله على رسوله.

نفحات من سيرة الرسول وصحبه



١- المولد والنشأة
٢- الرسول في المدينة
٣- الفتح والوفاة
٤- حاضنة الإسلام
٥- سابق الحبشة
٦- صديق القرآن
٧- الشهيد الحي
٨- الباحث عن الحق
٩- أم حبيبة
١٠- الراكب المهاجر
١١- حواريّ الرّسول
١٢- صاحب الخدعة
١٣- فاتح مصر
١٤- أمين الأمّة
١٥- الشّهيد الطّائر



01R160600

مكتبة لبنان ناشرون

الشركة المصريّة العالميّة للنشر - لونجمان